عمرو جمعة

ليلٌ لم ينتهِ

اسم الكتاب: ليلٌ لم ينتهِ

تأليف: عمرو جمعة

الإخراج الداخلي: د. شيماء أبوطالب

تدقيق لغوي: هدية علي

تصميم الغلاف: محمد علي

الطبعة الأولى: 2023

رقم الإيداع: 23843 /2022

الترقيم الدولي: 7 - 5 - 86399-977-978





مزاج الكتب

ج.م.ع
الإسكندرية
Email: mazagelkotob@gmail.com
Mobile: 01024541339

إهداء

إلى روحي التي فقدتُها، وما زلتُ أُحاول يائسًا العثور عليها.

الفصل الأول

الإسكندرية – ديسمبر ٢٠٢١

تحت أمطار ليلة إسكندرية عصيفة وبالكاد يُرى الطريق للحظات كلما تُزيح مساحات السيارة المياه عن الزجاج الأمامي، يقود محمود الصاوي ذو الثلاثة وأربعين عامًا سيارته على طريق البحر عند الشاطبي بعد منتصف الليل بينما يُدندن مع الأغاني التي يستمع إليها رائقَ البال مستمتعًا بأجواء الإسكندرية الشتوية الساحرة.

وأثناء سيره في الطريق الذي بالكاد يراه من ضوء كشافات السيارة الخافت إذ بشخصٍ يظهر أمامه على الطريق فجأة، فهَمَّ الصاوي بتحريك مقود السيارة بسرعة شديدة ليتفادى ذلك الرجل، أوقف السيارة وبقي متسمرًا لعدة ثوانٍ دون حراك يُحاول السيطرة على أعصابه بعد ذاك الفزع الذي قد ملأ قلبه بالرعب.
وبعدما أفاق قليلًا من الفجعة، فتح باب السيارة وخرج منها ليرى ما أمر ذلك الرجل، كانت السماء تُمطر سيولًا والجو قارس البرودة بدرجة لا تُحتمل.

حاول محمود إلقاء نظراته بصعوبة شديدة وعيناه شبه مغلقتين بسبب الرذاذ ليرى الرجل، حتى استطاع رؤيته واقفًا بالجوار في اتجاه البحر معطيه ظهره.

اقترب منه بخطوات ثقيلة يُحارب بها ضد الرياح القوية التي تُعيقه وتقذف قطرات المطر نحوه، ثم نادى عليه بصوتٍ عالٍ مرتعشًا من البرودة:

- إنت كويس يا؟

ظل واقفًا في مكانه على نفس الوضع ولم يُجبه، اقترب محمود أكثر حتى صار بجانبه فوجده يقف في مكانه بالقرب من كازينو الشاطبي دون حراك ينظر ناحية البحر وعيناه مثبتتان نحوه وكأنه دمية لا روح فيها غير أنه يرتعش من الداخل بشدة بينما يُردد كلامًا خافتًا بالكاد يستطيع سماع صوته دون أن يفهم ما يخرج من فمه من كلمات.
واضعًا ذراعيه على صدره وكأنه يحمل شيئًا ما ولكن ثيابه المهترئة المتسخة التي رغم غرقها بمياه الأمطار لم تستطع تنظيفها ولو قليلًا- تحجب عنه رؤية ما يحمل.

كرّر عليه السؤال وهو يخطو ليكون أمامه وجهًا لوجه:

- هاه. إنت كويس؟

ولكنه لم يرد عليه أيضًا وظلّ على نفس الحالة ينظر نحو البحر ومقلتاه تكاد لا تتحرك وكأن شخصًا غير واقف أمامه، مكملًا همهمته غير المفهومة تلك التي حاول الصاوي فهمها حتى استطاع التقاط منها كلمة واحدة يُرددها بصوتٍ مرتعش كصوت أم تاهت ابنتها الصغيرة تجوب الشوارع والطرقات بحثًا عنها:
"ليل. ليل. ليل"
وقف محمود يُحاول أن يُدقق في وجهه الذي بالكاد تظهر منه عيناه لكثافة شعره ولحيته المبعثرة، خصلاتهما المجعدة المغطاة بالوحل ومن تحتهم فمه غير الظاهر من أسفل شاربه ما زال يُتمتم بذلك الاسم.

ظل ينظر إليه محمود مدققًا وعلى وجهه علامات الدهشة، جحظت عيناه عندما اتضح له أنه يعرفه، أيُعقل أن يكون هو؟ هل ذلك حقيقي؟ نعم، إنه هو. قال بنبرة مفزوعة والدهشة تملأ دماءه:

- عصام!!!!!

وضع يديه الاثنتين على كتفيه بقوة ثم أتبع:

- هو إنت؟! إنت عصام؟!

وأيضًا ظل على نفس الوضع ولم يُجبه، بل إنه لم ينظر إليه حتى وظل يحدّق في البحر وأمواجه الهوجاء تشتد وتشتد لتتراقص مع الرياح العاصفة لتُكمل السيمفونية التي يعزفها شتاء عروس البحر.

دخل محمود في حالة ذهول مما رآه، إنه هو. إنه عصام صديق طفولته وزميله في الدراسة حتى الجامعة. ولكن كيف، كيف أصبح هكذا؟ لقد كان رسامًا موهوبًا وطالبًا مجتهدًا وذكيًا، لقد كان يأخذ دائمًا مكانًا في ترتيب الأوائل منذ أن كانوا في المدرسة وحتى الكلية، طوال عمره كان اجتماعيًا وعلاقاته كثيرة ومتعددة في كل مكان ومجال، كانت حياته طبيعية بل رائعة، فكانت مليئة بالأحداث الجيدة فلم تكن مملة.

لقد كانوا ثلاثة هم أصدقاء العمر، يقضون الوقت كله سويًا، يفعلون كل شيء معًا، يلعبون، يدرسون، يحلون مشاكلهم. ولكن بعد التخرج افترق الأصدقاء كلٌ في طريق حياته التي تُلهي وتُشغل وتُفرّق ما كان يظنه الناس لا يفترق أبدًا.. فقلّت الاتصالات ومنهم من انتقل للعيش في مكان آخر، ومنهم من

سافر ليُكمل دراسته خارج البلاد حتى انقطع التواصل تمامًا بين الجميع.

ولكن ماذا حدث.. كيف أصبح عصام على هذا الوضع. كيف تبدّلت أحواله بهذه الطريقة ولماذا.
تساؤلات كثيرة تتصارع داخل رأس محمود في الوقت ذاته حتى كاد رأسه ينفجر.

ربت محمود على كتف عصام بحزنٍ عميق ممزوج بشفقة على الحال الذي أصبح به وقال له مشيرًا برأسه نحو السيارة:

- يلا يا عصام تعالى معايا.

ولكنه كالعادة لم يُعره أي انتباه، فأمسك بذراعه وجذبه برفق ليسير معه، فحاول التشبّث بالبقعة التي يقف عليها بقوة وبدأ صوته يرتفع وهو يُعيد ترديد كلماته بقوة وكأنه يُنادي على شخص: "ليل. ليل"
حاول محمود تهدئته وهو ممسك به حتى بدأ يمشي معه ببطء إلى السيارة وركباها ليحتميا من الأمطار الشديدة التي بللت ملابسهما بالكامل والبرودة التي جعلت عظامهما كقطعٍ من الجليد الصلب.

جلس عصام في المقعد الخلفي وظل ينظر من وراء النافذة المغلقة المشـبرة وقطرات المطر تتزحلق من فوقها في نفس الاتجاه نحو البحر وما زال يُتمتم بكلماته بصوتٍ خافت، بينما يرتجف جسده بقوة وذراعاه ما زالت ملتفة حول صـدره مخفيًا من ورائها ما يُخفيه.

مدّ الصاوي يده نحو تابلوه السيارة وعبث في الأغراض التي بها يُقلّب فيها يبحث عن شيء ما حتى أخرج يده ممسـكًا بكارت أبيض اللون مكتوب عليه (د. إبراهيم عطية - أخصـائي الأمراض العقلية والنفسية)

أخرج هاتفه من جيبه وبدأ يكتب الرقم المطبوع على الكارت ثم اتصل به، وما من ثوانٍ قد مضت مع صوت رنين الهاتف الذي اختلط بصوت قطرات المطر وهي ترتطم بالسيارة من كل اتجاه حتى رد على الاتصال:

- ألو؟
- أيوه يا إبراهيم، أنا الصاوي.
- يااااه! لسه فاكر تتصل بيا دلوقتي يا جدع!
- معلش بقى الدنيا لهتني، انت عارف الحياة ومشاكلها.

ثم أتبع:

- المهم، أنا عايزك تجيلي على البيت ضروري.

أجابه دكتور إبراهيم بنبرة قلقة:

- خير فيه إيه؟
- تعالى بس وأنا هفهمك كل حاجة.
- طيب العنوان إيه ما أنا معرفش.
- أيوه صحيح، معلش نسيت. أنا ساكن في محرم بك. هبعتلك العنوان بالظبط في رسالة.
- يااااه! انت لسه ساكن هناك؟

ابتسم محمود وأجابه بنبرة هادئة محملة بعبق الذكريات:

- لا أنا رجعت سكنت في المنطقة تاني، لكن في بيت جديد.

صمت قليلًا ثم أتبع:

- يلا تعالى بسرعة أنا مستنيك متتأخرش.

انتهيا من المكالمة التي تركت في قلب دكتور إبراهيم القلق والحيرة وبعضًا من الفضول. قام من سريره الدافئ بعد يوم عملٍ شاق في مستشفى الأمراض العقلية التي يعمل بها. ارتدى معطفه سريعًا وأخذ سيارته المركونة بجوار بيته القاطن في منطقة سيدي

بشر واتجه في طريقه إلى محرم بك حيث العنوان الذي قد أرسله له محمود للتو.

كانت تلك المكالمة غير متوقعة على غير موعد، فقد نسي- إبراهيم الأمر منذ أن أعطى الصاوي الكارت الخاص به حين التقاه بالصدفة منذ ما يقرب من أربعة أشهر، وكانت أول مرة يلتقيا منذ أيام الدراسة أي ما يقرب من العشرين عامًا، بعد أن انقطع التواصل بينهما لسنوات، كحال جميع الرفقاء القدامى، فإبراهيم كان أيضًا صديق محمود وعصام ومن شلتهم، ولكنهم الثلاثة كانوا الأقرب لبعضهم البعض، ولكن كما ذكرت من قبل فالدنيا لا تترك شيئًا على حاله أبدًا.

كان محمود قد تحرّك في طريقه إلى منزله، وفي تلك الأثناء حل الصمت السيارة غير همهمات عصام المسكين وأنظاره التي لم تُفارق النظر من النافذة حتى بعد اختفاء البحر، لم يُحاول محمود النطق بكلمة فعلم أن جميع محاولاته ستبوء بالفشل والجواب في المقابل سيكون الصمت كما المرات السابقة، فاكتفى بسرقة النظرات عليه من مرآة السيارة الأمامية أثناء الطريق، وهو يرى عصام المرتعش المسكين في تلك الحالة المزرية المثيرة لعواطفه

فتدمع عيناه وهو يتذكر لقطات من ذكرياتهما معًا التي لا تُمحى أبدًا من وجدانه.

فلم ولن ينسى قط لعبهم في شوارع محرم بك حيث كان الثلاثة يقطنون في شوارع متقاربة، يركضون ويلعبون الكرة في شوارعها الإسفلتية وإصاباتهم المتكررة التي لم يكونوا يلقون لها بالًا ولا يوقفون اللعب إلا لسيدة أو عجوز يمر بجوارهم، ورسمهم على الإسفلت بالطباشير أو الحجر الجيري الأبيض ليلعبوا السيجا ويقفزون فوق المربعات وكأنهم يُحلّقون في الهواء كالفراشات الصغيرة فكانت روح الطفولة تزهو ألوانها بداخلهم وقتما كانوا لا يحملون همًا، وإيمانهم القاطع ببقائهم سويًا طوال العمر دون فرقة ولا شجار، فيبتسم محمود ابتسامة أثقلها الحزن على حال الدنيا وتقلباتها المستمرة غير المتوقعة.

***

وصل محمود إلى شارع حسن الإسكندراني حيث يقع منزله ذو التصميم العتيق الكلاسيكي كحال أغلب بيوت منطقة محرم بك بجانب الفيلات الأثرية القديمة حيث سكن أثرياء الإسكندرية وكبار العائلات الأجنبية منذ زمن مضى حتى تركوها فبقت تُزيّن

شــوارع وزقائق الحي الهادئ الجميل قبل أن تُصــيبه فيروســات العشوائيات التي أحاطت به.

صعد الصاوي إلى الطابق الرابع حيث شقته ومعه عصام ممسك بيده وما زال يُمارس طقوســه الباثّة للتوتر والقلق في عروق كل من يراه. دخل محمود الشــقة ثم دخل وراءه عصــام بترددٍ بعدما طلب منه محمود الدخول عدة مرات.
أحضر محمود قطعة من المشــمع ووضــعها فوق الأريكة ثم اســتراحا عليها حتى لا تبل ملابســهما الأثاث، وجلسـا في هدوء بانتظار دكتور إبراهيم، ومحمود يُلقي النظرات على عصــام يتأمل حاله بحزنٍ وشفقة بينما يبدو وكأنه في عالم آخر ليس معه.

ما مرت قرابة الربع ساعة حتى دقّ دكتور إبراهيم جرس الباب، فتح له محمود، فوجد وجهه المســتدير يبدو عليه القلق، والعرق يهبط من جبينه حتى لغده المتدلي أســفل ذقنه، يأخذ أنفاســه بصعوبة وجهد، ينهج من أثر صعود درجات سلم البيت القديم المرتفعة وهرولته من منزله سريعًا بعدما أثارت المكالمة قلقه الشديد:

- خير يا محمود فيه إيه؟

قال له محمود وهو يُشير بيده إلى الداخل:

- تعالى يا إبراهيم ادخل.

دخل دكتور إبراهيم ووراؤه محمود صالون البيت فتفاجأ إبراهيم من وجود ذلك المشرّد في بيت الصاوي. توقف عن المشي- ثم نظر على يمينه لمحمود قائلًا في دهشة:

- إيه ده!! مين ده يا محمود؟
- بص كده وركز في وشه كويس.

ثم أتبع:

- ما تخافش مش هيعملك حاجة.

اقترب دكتور إبراهيم ناحيته بينما يخلع نظارته عن وجهه ليمسح بمنديل العرق الذي يتصبب من وجهه كالشلال. مسح عدسات نظارته ثم ارتداها بينما كان قد اقترب من عصام، وقف أمامه ثم أحنى رأسه وقرّبها نحوه ليتفحص ملامحه التي يحجبها شعره وذقنه الكثيفان، لم يتعرف عليه في البداية ثم بدأ يُغلق عينيه جزئيًا ضامًا حاجبيه محاولًا التركيز والتدقيق في ملامحه. ظل يتفحّص ويتمحّص لبضعة ثوان، وعصام لا يُعيره أي اهتمام ناظرًا بعيدًا نحو سقف الغرفة ويُهمهم بكلماته. حتى جحظت عيناه فجأة مندهشًا وقطرات العرق تتسابق على الهبوط من فوق جبينه..

أبقى عينيه مسلطة على وجهه بينما قال بنبرة محملة بالدهشة والرعب:

- مش معقول! أكيد مش هو لا..

صمت قليلًا وعيناه تكاد تقفز خارج رأسه من الدهشة، ثم أردف:

- عصام! ده إنت فعلًا؟!

حلّت بضع ثوانٍ من الصمت التام، ثوانٍ تملؤها الحيرة ومشاعر الحزن المتدفقة من ينابيع الذكريات القابعة في عقول الأصدقاء القدامى، حتى فاضت من عيونهم على هيئة دموع لم يستطع إبراهيم كبحها وكذلك محمود الذي كان قد أخذته الصدمة والهوجة ومنعته من البكاء حتى أفاضت مشاعره بعدما اختلطت بمشاعر أصدقاء عمره، وأجهشا بالبكاء على الحال التي وصل إليها صاحبهما، والزمن الذي قد بلاه، ولطّخ قلبه النقي برماده كما فعل المطر والطين بجسده وما يُغطيه.

أردف دكتور إبراهيم باكيًا:

- إيه اللي حصل له! إيه اللي حصل لك يا عصام؟!

ظلّ الصمت والذهول مسيطرًا عليهما، يتبادلان نظرات الصدمة والحيرة بينهما ونظرات الشفقة والحزن على عصام، يضربان الكف على الكف تعجبًا للحال الذي ما بأيديهما شيء حياله.

حاولا استجماع أعصابهما وتمالك قوتهما ليفكرا كيف سيتدبران الأمر وماذا سوف يفعلان حياله.. مسحا أدمعهما التي قد غطّت وجهيهما لتعمل طبقة عاكسة بلمعان ضوء كشافات الشارع الليلية الخافت المتسللة من النافذة لتمتزج مع ضوء الغرفة الخفيف.

اقترب دكتور إبراهيم من عصام محاولًا تشخيص حالته، اقترب من وجهه وما زال يُبدّل نظراته ما بين السقف والنافذة ويُهمهم. رفع إبراهيم سبابته أمام وجهه وبدأ يُحرّكها يمينًا ويسارًا ولكن عينيه لم تتبع إصبعه وظلّت ناظرة بعيدًا.. أخفض يده ثم نظر إلى محمود وقال:

- ده مش معانا خالص، مش بينجذب لأي مؤثرات. عقله في حالة غياب شبه تام.

رد محمود بنبرة مهتزة قلقة:

- طب وده ليه علاج؟

ملأ صدره بكمية كبيرة من الهواء المحمّل بالحزن والضيق، كالبالون، ثم قال وهو يزفره:

- للأسف، حالته متأخرة جدًا.

صمت قليلًا بينما يبتلع ريقه ثم أتبع:

- محاولات العلاج هتكون مجرد محاولات ميؤوس منها.

ساد الحزن في المكان، بين استقبال محمود للأمر وتشخيص دكتور إبراهيم العليم بتلك الأمور بحكم مهنته.

بخوفٍ وترقّب قال محمود:

- والعمل طيب؟

تنهّد إبراهيم ثم أجابه:

- مينفعش نوديه المستشفى يا محمود، انت ماتعرفش إيه اللي بيحصل هناك. عمري ما أقبل صاحبي يحصل له كده.

رد محمود باندفاع وخوف:

- لا، مش هنوديه طبعًا.
- أيوه مش هنوديه.

ثم أتبع دكتور إبراهيم:

- يا ألله بس نخليه يستحمى ويغير هدومه دي بدل ما يعيى.

- تمام هدخل أشوف له حاجة يلبسها من عندي، وهغير برضو عشان البلل اللي أنا فيه ده.

ثم اتجه إلى غرفته مسرعًا، بينما قام دكتور إبراهيم يُحاول خلع الملابس المهترئة المبتلة التي تشرّبت الطين والأوساخ من على عصام، وعندما مدّ يده لينزعها برفقٍ من عليه انتفض عصام وأبعد يده بضربة سريعة غير قوية رافضًا نزع ملابسه، ثم ضمّ ذراعيه مجددًا على بطنه وكأنه يُحاول أن يحمي شيئًا ما ممسكًا به، فحاول إبراهيم أن يُفهمه أنه يُريد منه الاستحمام وتبديل ملابسه، برفقٍ، وتهدئته.

وبعد محاولاتٍ لإقناعه، هدأ وترك إبراهيم ينزع عنه القميص المهترئ الذي يرتديه، وعندما نزعه عنه، وجد ما يُشبه كتابًا غلافه بني داكن، فحاول الإمساك به، ولكن ثار عصام مجددًا بعصبية فحاول إبراهيم مجددًا أن يُفهّمه أنه سيضعه إلى جواره فقط حتى يستطيع الاستحمام، حتى اقتنع وتركه يأخذه. أمسك إبراهيم به ونظر إليه فوجده دفتر قديم ذو غلاف جلدي لونه بني داكن، مهترئة حوافه وبه بعض الشقوق والتقشيرات، فوضعه على المنضدة بجوار الأريكة التي يجلس عليها عصام.

عاد محمود بعدما قد بدّل ملابسه، ثم أخذا عصام واتجها نحو الحمام. أشعل محمود سخان الغاز وبدءا يحممان صديقهما عصام بالماء الدافئ والصابون من الطين الذي يُغطي كامل جسده وكان مبتسمًا قليلًا ويبدو سعيدًا على الرغم من وعيه الغائب، بينما محمود وإبراهيم تذرف أعينهما بالدموع وهما يريان حال صاحبهم وما الذي فعله الزمن به، فكان أمرًا شديد الصعوبة عليهما وهما يتذكران الأوقات الجميلة بينهم في الماضي.

انتهيا من تحميمه وألبساه الملابس النظيفة الثقيلة التي أحضرها محمود له ثم أخذاه إلى غرفة من غرف الشقة، حضّر محمود السرير له ثم استلقى عليه وكان يشعر بالخدر والنعاس، تغطى بالبطانيات في ذلك البرد الشديد بعد حمامه الدافئ، حتى غلبه النعاس وغطّ في نومٍ عميق.

خرج محمود وإبراهيم من الغرفة بعدما نام وأغلقا الباب. جلسا على الأريكة متعبين ليستريحا بعد تلك الليلة العصيبة التي نهرت أعصابهما، وأعينهما التي احمرت شرايينها فجعلتها ككرات دموية شديدة الحمرة.

ألقى محمود بنظره إلى يساره فرأى الدفتر موضوعًا على المنضدة، لفت نظره، فمدّ يده متعبًا ببطءٍ وأمسك به، نظر إلى إبراهيم

وســأله عن ماهية هذا الدفتر، فقال له إنه وجده مع عصــام يُخبّئه تحت ملابســه، تحسّـس بيده على غلافه الجلدي المشـقق ثم فتحه، وجد صفحاته مصفرة عتيقة، ورائحتها عطنة من القدم، تحسسها فكانت مندية شــبه مبتلة قليلًا، قلّب الصــفحة الأولى الفارغة، فوجد في الصفحة التي تليها كلامًا مكتوبًا بخط اليد.

نظر إلى إبراهيم وقال له:

- الحق! دي شكلها مذكراته.

اقترب دكتور إبراهيم وعيناه مفتوحتان بتلهف ليرى الدفتر في يد محمود، والذي قد غمره الفضــول هو أيضًــا، لمعت عيناهما، فربما يقرءان شــيئًا يُفيدهم، أي شيء عن عصــام، يُشـفي فضــولهما لا حزنهما، يُزيح قليلًا ســتائر الحيرة التي غطّت كل شيء، يُفهمهما ماذا حدث، وكيف، ولماذا.

ليبدءا قراءة صفحات الدفتر.



مذكرات عصام

الفصل الثاني

أكتب هذا محاولًا علاج وحدتي..

يقولون الكتاب خير أنيس، والكتابة علاج للروح،
فقررتُ أن يكون هذا الدفتر صديق لي منذ الآن، يُرافقني في الحياة، في كل لحظة، الحلو منها والمر، أحدّثه ويُنصت لي باهتمام وصبر طائل دون ملل ولا كلل، ولا حرج مني في الحديث عن أي أمر مهما كان..

فإليّ أكتب هذا.

عصام ممدوح.

*****

"أنا هويتُ وانتهيتُ"

كلمات دائمًا ما يُرددها سيد درويش عبر الجراما فون العتيق الذي تبقى لي من جدي ـرحمه اللهـ إلى جوار مكتبته الأثرية التي كانت أهم شيء بالنسبة له، وأصبحت كذلك بالنسبة لي، والتي جعلتني أعشـــق القراءة، فأغوص يوميًا في أعماق بحر أوراقه المصـــفرة فتقذفني الصفحات بين بعضها البعض كما تفعل الأمواج بقاربٍ صغير في يومٍ عاصف.

وعلى الحان موســيقار الشــعب التي تملأ أســطواناته حافظة الجرامافون، فكان جدي يعشـــقه، وأظن أنه قد ورث لي عشـــقه كالجينات.

تســتوقفني دائما تلك الكلمات التي كتبها يونس القاضي ولحنها ســيد درويش لتخلّد في التاريخ وتســكن قلوب العاشــقين فيرحلون هم ولا ترحل عنهم.

توصــف حال كل عاشــق بدقةٍ بالغة الشــدة، فمن وجهة نظري الحب هو بداية النهاية، فمع بزوغه في حياة الشخص تتغير حياته بالكامل، تُشـــلّ بأكملها شـــللًا مؤقتًا حتى يُعالج عقله الموقف ويُحاول اســتدراكه، تلك الفترة التي يكون فيها العاشـــق

كالمجاذيب فتراه وكأنه ليس معنا في الواقع، ترى تلك اللمعة وكأنه في عالم آخر لا يمتُّ بأي صلة بواقعنا هذا، فتكون نهايته في العالم الواقعي، وبدايته حيث يُولد في عالم الحب والهوى السحري.

بغض النظر عن مآل تلك العلاقة التي بدأها أكانت سعيدة أم تعيسة ولكن في كلتا الحالتين توجد حالة فقد، فإذا كانت نهاية حزينة فالعاشق على الأغلب يفقد روحه إلى الأبد، حتى وإن أكمل حياته بطبيعية ووجد حبًا آخر وأكمل معه ما تبقى من عمره، يظل قد فقد شيئًا ضخمًا، فقد جزءًا كبيرًا من روحه، وحتى لو استطاع ما تبقى من روحه المواصلة والسير قدمًا في الحياة، فالجروح لا تلتئم والفراغ المتروك لا يمتلئ، فللأسف الشديد أرواحنا ليست كالكبد إذا فُقد جزء منه ينمو مجددًا.

ويُكمل درويش:

"وليه بقى لوم العزول يحب إني أقول،
يا ريت الحب ده عني يزول"

وهنا يصف حالة العاشق التي غرقت حياته بأكملها في بحر الحب وأحزانه فأصبح كالأعمى لا يرى ما يُصيبه من مآسي وكأنه يتلذذ بمعاناته بل يستنكر كل الأفكار المتمنية زوال ذلك الحب النابع من قلبه المليئ بالمشاعر النقية الصافية قبل أن يُلطخها وقت انتظاره لبزوغ شمس حبه فيرى وأخيرًا نورًا حقيقيًا غير الذي يُوهم به نفسه، يرى مقابلًا لذلك السعي والشقاء لنيل الرضى.

ولكن الحب ليس عادلًا كما الحياة يا صديقي، ولربما الحياة أعدل قليلًا، فيأتي من بعدها الحياة الآخرة وكلٌ يأخذ ما له ويؤخذ منه ما عليه.

ولكن الحب ليس كذلك، فدائمًا ما تطب كفة عن كفة أخرى بالميزان، لم يحدث قط أن توازنت الكفتين وحملا نفس المقدار من الحب، فحتى العلاقات التي نراها مثالية بها ثغرات بكل تأكيد، فلا يملأ الكفتين نفس الوزن أيضًا، ولكن يكون الوزنان متقاربين، فهي نسب دائمة التغير لا تبقى على حال، والكل يدور في ملاهي، فالحب والاستقرار كلمتان متضادتان في معجم الحياة.

"خلاص يا عم ده انت فيلسوف جدًا. هههه"

****

أكره الوحدة التي أصبحتُ أعيشُ بها منذ أن مات جدي، لقد كان مؤنسي الوحيد طوال عمري، فلقد وعيتُ عليه منذ صغري ولم أرَ أمي التي ماتت وهي تلدني. قال لي جدي إن الله عندما توفاها عند ولادتي قد بثّ روحها فيَّ، فكان يقول لي دائمًا إني أُشبهها تمامًا في عدة صفات، ليست ظاهرية فقط بل روحانية، فأنا أُشبهها تمامًا في عاطفتي الشاعرية المرهفة زيادة عن اللازم، فلقد كانت شديدة التأثر بأي شيء، كانت عيناها سرعان ما تدمع عندما تتعرض لموقفٍ مؤثر أو عندما تتذكر عزيزًا قد رحل، فكانت الدموع تنسابُ بسرعة دون أن تستطيع تمالك نفسها..

أنا مثلها تمامًا في ذلك، ولكن على اختلاف أنني أستطيع تمالك نفسي أكثر منها بعض الشيء، أظن بحكم أنني رجل، فعلى الرغم من أنني أرى أن النساء والرجال متساوون في مقدار العاطفية والمشاعر، على عكس ما يظن أغلب الناس، أن المرأة حساسة وعاطفية أكثر من الرجل، ولكن ما يجعل الناس يظنون ذلك أن

الرجل يُخفي مشــاعره ولا يُظهرها لأحدٍ على عكس المرأة، فهي لا تســتطيع الكتمان في أغلب الأحيان، فالنســاء دائمًا ما يُظهرن ما يشــعرن به في الوقت الراهن، ويُبدين رد فعلهن على الحال، ودائمًا ما ترى الفتيات يحكين لأصدقائهن ما يُضايقهن وما يمرُّن به من مآسٍ ومشــاكل مهما كبرت أو صــغرت، لكن ترى الفتى مهما مرّ بمشــاكل وصعاب يكتم ويكبت بداخله أغلب الوقت، حتى يأتي وقتٌ ما لا يســتطيع التحمّل فينفجر كالبركان الخامل من خارجه منذ آلاف السنين، الدائم الغليان من داخله..

فما بالك بمن يجمع أغلب تلك الصــفات معًا في الآن ذاته. قوي العاطفة، شــديد التأثر، ذو مشــاعر جياشــة هوجاء، تثور وتغلي طوال الوقت من الداخل، وشديد الكتمان، قليل الكلام، حبيس المشاعر ودافنها، يسوده الصمت والهدوء من الخارج.

فهذا ما ورثته من أمي حسب قول جدي..

مشــاعري مضــطربة متضــادة حول ذلك الأمر، ما بين ما أظنه ابتلاءً يُنغّص عليَّ حياتي أغلب الوقت، وشــاعريتي الحميمة نحو ذلك الحبل الذي يربطني بأمي فأشــعر أنها موجودة معي طوال

الوقـت، أو بـالأحرى روحهـا كـامنـة داخلي، ممتزجـة بروحي، توحدتا معًا حتى صارا كيانًا واحدًا أبديًا إلى ما لا نهاية.

*****

لا أتذكر أبي كثيرًا، فقد لحق بأمي بعدها بعدة ســنوات عندما كنتُ قد بلغتُ السابعة من عمري تقريبًا..

مجرد لقطات ضــبابية غير واضــحة في ذاكرتي بالكاد أســتطيع تذكّرها، بيني وبينه وهو يحملني فوق كتفيه ويتمشّــى بي بجوار ســور البحر، ونتخطاه لنصــل إلى الشــاطئ، وأنا أنظر على قدميه وهي تطـأ الرمـال وتغرز بـداخلهـا حتى تُغطي جزءًا كبيرًا من حذائه الجلدي اللامع على قمته انعكاس ضـوء قمر الإسـكندرية الخافت الباعث للهدوء والسـكينة، أُدقق في ذلك اللمعان البراق بشـدة، وأسرح متأملًا فيه حتى أشـعر وكأن عيناي هي التي تشـع ذلك اللمعان السـحري، ثم أرفع رأسي إلى السـماء لأرى مصـدر الضـوء، فيُخيّل إليّ أن القمر وجهٌ مبتسـمٌ يشـعُ من عينيه شـعاعًا أبيض مائلًا للصــفرة الهادئة، موجه نحوي أنا وأبي، ثم أنظر إلى الســماء حوله فأجد نفس اللمعان على حذاء أبي متكررًا مئات بل

آلاف المرات، فأتمعنها كثيرًا متفحصًـــا اياها، وكأن روحي قد تاهت وتتنقل بين النجمة والنجمة، إلى أن وقف أبي فجأة قاطعًا رحلتي الخيالية قائلًا:

- إيه رأيك تجرّب تلمس البحر لأول مرة يا عصومة؟

ثم إذ به يرفع يديه ويُمسكني بهما لينزلني من فوق كتفه، فأنظر نحو قدميه بينما أنا أُحلّق في السماء، وأشعر بالهواء يُدغدغني وهو يتخلل أصابع يديّ، لأرى المياه قد غطّتها ولكني ما زلتُ أرى ذلك اللمعان، وقد انتقل إلى سطح المياه، يهتز مضطربًا بينما الأمواج تندفع متتالية بهدوء وكأنها تريد أن تقذفه بعيدًا إلى الشاطيء.. فيُنزلني أبي وهو ما زال ممسكًا بي بإحكام نحو الأسفل حتى اقتربتُ من الماء للغاية ورأيتُ ذلك اللمعان عن قُربٍ بوضوح وقد بدا له أن حجمه قد كبر فأصبح أقرب إلى حجم كفي، فسرحتُ ناظرًا إليه بنظرة حالمة وقد شعرتُ باللمعان ينبعثُ من عيني مجددًا، ثم مددتُ يدي وأمسكتُ به، فانطفأ، وابتلّت يدي لأول مرة ألمس مياه البحر. فتحتُ قبضتي وقد حملتُ القليل من الماء، نظرتُ إليه في كفي، فتفاجأت باللمعان قد

ظهر بداخل يدي، ابتسمت، ثم أغلقتُ قبضتي سريعًا والماء يتسرّب من بين أصابعي وأنا أرفعها لأضع ذلك اللمعان في جيبي قبل أن يهرب مني..

وفي طريق العودة، وأنا فو ق كتف أبي متعبًا يُداعبني النعاس، مبتسمًا ابتسامة نصر، سعيدًا بإمساكي باللمعان، فتحتُ جيب (الشورت الجينز) الذي أرتديه، لأطمئن على اللمعان المخبأ به، لأتفاجأ أنه غير موجودٍ وقد هرب، فأحزن وأنظر فوقي إلى السماء، فأرى النجوم قد اختفت إلا نجمًا واحدًا فقط لمعانه أكبر من النجوم التي قد سبق لي رؤيتها، نعم، إنه هو ذلك اللمعان خاصتي، وجدته يتبعني أينما يسير بي أبي ولا يُفارقنا، فاطمأننت أنه لن يتركني أبدًا، بقيتُ أُراقبه حتى وصلنا إلى البيت، وغلبني النعاس وغطتُّ في النوم..

وحتى الآن أجده أحيانًا عندما أنظر إلى السماء ليلًا، موجودًا هناك يتبعني أينما أذهب، بالأخص عندما أكون وحدي (كالعادة).

*****

الفصل الثالث

سئمتُ من وحدتي القاتلة تلك، أكره حياتي التي صارت أشبه بمسلسلٍ تليفزيوني رغم انفصال حلقاته المتتالية ولكنها في النهاية كيان متكامل مترابط، ولكن على عكس المسلسلات التلفزيونية مختلفة ومتنوعة الأحداث، فحياتي عبارة عن مسلسل مكون من حلقة واحدة مملة تتكرر باستمرار طوال الوقت، نفس الحلقة التي أنا بطلها الوحيد الحزين الكئيب، أعيش بتلك الدوامة اللا نهائية، منتظرًا انقطاع بث ذلك العرض، ونهاية تلك الرواية المملة الخالية من أي حدث مميز.

أكره وقت استيقاظي من النوم، أشعر بضيقٍ شديدٍ يملأ أعماق قلبي بل جسدي كله، إحساس بالضيق ومشاعر حزن غير مبررة نوعًا ما، أو ربما طبيعية كرد فعلٍ لحياتي المزرية تلك، أشعر بتلك المشاعر قبل حتى أن أفتح عيني، تتدفق وتسري في عروقي، مطالب مني أن أقوم لأواجه تلك الحياة الكئيبة وحيدًا دون أي خيط أملٍ رفيع يُغريني كي أتمسك به يائس النتيجة. حتى لا أستطيع المكوث في المنزل، أشعر بطاقة سوداوية تملأ البيت

بأكمله، لا أدري ما مصدرها، أشتم رائحتها أحيانًا تشبه آثار فراق أحباء، أو ذكريات سعيدة عاشت هنا منذ سنوات ولم تعد حية، وأحيانًا أشعر أنها تنبث مني أنا، أنا من أملأ البيت بتلك الطاقة السوداء، ويزداد أحيانًا يقيني بذلك عندما أجلس بأي مكانٍ وحدي كالعادة، بعد مدة من الزمن، أجد المكان قد ضاق بي، وأشعر بالسواد قد ملأ المكان، طاردًا إياي منه، فأخرج باحثًا عن مكانٍ آخر خالٍ، مهيأً دون إرادة منه لاستقبال شلالات السوداوية والكآبة المتدفقة من قلبي، حتى يُملأ قبل أن أتركه باحثًا عن وريثٍ آخر يتبعه.

كالعادة، أقوم من سريري الذي تتساقط منه قطرات التعاسة التي تتسرب من عقلي الباكي على حالي وهو يُحاول جاهدًا خلق أحلام بالكاد تستطيع التجمل ببعضٍ من الخيال المعاكس لواقعي، ليوهمني ببعضٍ من السعادة المزيفة التي تُشبه جرعة مخدرٍ غير كافية لتخدير المريض.

أقوم لآخذ حمامًا دافئًا مغمضًا عينيّ، لربما أفتحهما فأجدني في حياة أُخرى أقل قبحًا، ويكون كل ذلك مجرد كابوس، ولكن بحالٍ لا تقل تعاسته عن تعاستي تبوء المحاولة طفولية الخيال بالفشل.

أرتدي ملابسي التي تُشبهني في دكن لونها كداخلي، أجمع أغراضي الكثيرة، أشعر وكأنني آخذ كل ما لديّ من أغراض في حقيبة ظهري الكبيرة لتتحمل أحمالي تلك.

أخرج من بيتي ساعيًا في أرض الله الواسعة، بحثًا عن ما يخمد نار كتماني، بين مقهى وآخر، أتنقل بين أماكن عدة، كل منها يبعد عن الآخر بأميالٍ وأميال، أتقلب يوميًا بين كل بقعة في المدينة تائهًا حائرًا أنتظر أن يهبط عليّ الخلاص من السماء.

*****

في صباح اليوم، وكعادتي.. خرجتُ من المنزل غير محتملٍ القعود فيه، مشيتُ في شوارع محطة الرمل، أتأمل مبانيها العتيقة ذات الطراز الكلاسيكي الباعث للراحة والطمأنينة، أشعر بالبيوت هناك تبث طاقة شاعرية غريبة، طاقة تُشعرني بسكينةٍ بداخلي على عكس ما يكون من صراعات واضطرابات متخبطة بقلبي، تلك الطاقة تُشعرني بلمحة من ذكرياتي القديمة، لقطات تمر عليّ بمخيلتي وكأنها ترسم عليّ مراحل متتالية أمام عيني، لا أدري، هل أنا هنا بالفعل في ذلك الواقع القميء، أم أنني ما زلتُ أعيش هناك في تلك الذكريات الدافئة ذات المناخ الساحر الهادئ

المطمئن؟ أأنا أقف هنا وحيدًا حزينًا أتذكر أوقاتًا قد مضت وانقضت مع الأيام والشهور والسنوات، أم أنني الآن مع الأصدقاء نسير ونتسامر طوال الليل في شوارع الإسكندرية الهادئة الباردة؟

أشعر أنني قد فقدتُ الإحساس بالزمن، انقطع حبل إدراكي بالوقت، لم أعد أدري أين أنا ومتى، وماذا كنتُ أمس، وماذا صرت اليوم وما سأكون عليه غدًا، وما معنى أمس وغدًا أصلًا؟ ما معنى تلك الكلمات في حياتي، وما المهم فيها؟ هل إدراكي لها سيُعيد من رحل، هل سيُرجع ما مضى وانتهى، هل سيُعطيني الفرصة من جديد، فرصة أن أصلح كل شيء، ألا أكون على تلك الحال، ولكن ماذا أُصلح؟! ماذا كان بيدي فعله، وعلى ما أقدر القيام به الآن؟ هل نحن السبب فيما يحدث لنا؟ هل أنا من تسببتُ فيما آلت إليه الأمور الآن، هل العيب مني، أم في الزمان؟ الزمان الذي يغير كل شيء، الزمان الذي يلعب بنا ويُحرّكنا كالعرائس، يُشربنا الوهم ونصدّقه ونعيشه ثم يغدر بنا، يُطعمنا عسله وكأنه الدواء وهو الذي فيه الشفاء، وفي الحقيقة هو السم، السم الذي يقتل كل شيء جميل كان بداخلنا، كل شيء جميل في الحياة، أمنّا

الجميل والقبيح؟ أم أن الزمان هو من يقبح بقدر ما ينزع من الجمال النابع منا، نولد بقدرٍ كامل من الجمال، وكلما مر الوقت يُسلب منا يومًا بعد يوم، ينقص بمقدارٍ متفاوت حسب الظروف التي تُساعد على ذلك، فالنسب بيننا متفاوتة، وكل منّا يفقد الجمال الذي بداخله في وقتٍ يختلف عن الآخر، يزيد أو ينقص، ومنّا من ينتهي به الأمر بفقدان جماله كله، فلا يتبقى فيه سوى القبح، وقد غلبه الزمن، ودنسته الدنيا، ومنّا من يُصارع ليحتفظ قدر ما أمكن بما تبقى فيه من جمال، ويُحاول أن يزيد منه، فمن تغلبه الحياة، ومن ينتصر عليها؟

هناك أشياء كثيرة في الحياة تُرجعني إلى الماضي، تنقلني عبر الأزمنة بمجرد احتكاكي بها، لا أعلم هل السر يكمن بداخلي أم أن تلك الأشياء هي التي بها سحر عجيب وطاقة كامنة!

فمثلًا الروائح.. الروائح بالنسبة لي لها سحر عجيب مذهل، فعندما أمشي في الشارع ويمر شخصٌ بجانبي وأشم عطرًا معينًا، يُذكرني ذلك العطر بشخصٍ ما أعرفه، أو يُرجعني إلى الوراء بعيدًا حيث زمنٍ ما ومكانٍ ما قد مررتُ فيهما بحدث ما.. بمجرد أن أستنشق تلك الرائحة تُعرض في مخيلتي لقطات فجائية لا أُفرّق

بينها وبين الواقع، مفعول سحر هذا، أشعر بالخدر في رأسي، وكأنني قد شممتُ عطرًا سحريًا ينقلني عبر الأزمان والأماكن، كاسرًا كل قواعد وحدود الكون.

ذلك ما حدث لي اليوم بينما أتجول في شارع صفية زغلول بمحطة الرمل، عندما مرّ إلى جواري عجوز أشيب الرأس، قصير الشعر، متدلية خصله نحو جبهته، ووجه المربع ذو البشرة البيضاء المحمرة كطفل خجلان، يرتدي نظارة نظر شفافة مسندة فوق أنفه الكروي المنتفخ شديد الحمرة، مرتديًا قميصًا قصيرًا زيتوني اللون، يظهر من جيبه البارز عند صدره منديل أبيض وقلم أسود مثبت بالجيب بدبوسه، وبنطال جبردين أبيض، وحذاء جلدي بني اللون ينعكس عليه ضوء شمس الظهيرة الحارقة حتى كاد يبدو لون الحذاء أبيض، ممسكًا بعصا خيزران بنية داكنة منحنيًا أعلاها ليكون مقبضًا تُمسك يده به، وفي نهايتها مغطاة بمعدن أسود يُلامس الأرض كلما يسير العجوز خطوة، يحمل جريدة تحت إبط ذراعه الأخرى بينما في يده كيس شفاف بداخله كيس من الفول والفلافل ملفوفة بورقة بيضاء مبقعة بالزيت وبعض الخبز، يمشي بخطوات بطيئة بجهدٍ جاهد، عندما رأيته ذكرني

بجدي، كان يرتدي نفس أسلوب الملابس خاصته، ولم آخذ خطوتين حتى صرتُ بجانبه، ففاحت منه رائحة عطر قوية، أعرفها تمامًا، إنه نفس نوع عطر جدي الذي كان يحب وضعه، أو قريب منه للغاية، كعادة أغلب كبار السن يضعون نوعًا معينًا من العطور النفاذة القوية، وكأنني انتقلت في لحظة إلى الماضي بمجرد شمي لذلك العطر وأنا مارٌ بجواره، ذهبتُ بعيدًا بذاكرتي المليئة بالمشاهد واللقطات والذكريات الجميلة مع جدي، الذي قضيتُ معه عمري كله تقريبًا، قبل أن يُفارقني منذ قرابة الثلاث سنوات، ويتركني هكذا وحيدًا بتلك الحياة المملة الداكنة.

تذكرتُ ذلك اليوم عندما كنتُ ألعب الكرة مع جيراني في شارع ابن زهرون بجوار مدرستي الحدائق الابتدائية، كنتُ أبلغ وقتها حوالي عشر سنوات، بينما كنتُ ألعب وأجري ومندمجًا في اللعب، سمعتُ جدي يُناديني من بعيد، فنظرتُ نحو الصوت فوجدته واقفًا عند ناصية الشارع بطوله الشامخ، يرتدي قميصه الأبيض ذا الخطوط الطولية العريضة سماوية الزرقة، وبنطاله البني فاتح اللون، بابتسامته التي تشق وجه البيضاوي قمحي اللون المائل إلى البرونزية، أسفل شنبه الكثيف المصبوغة شعراته بين الصفراء

والسوداء تحت أنفه البارز المدبب، وشعره الأسود الخفيف على جانبي رأسه ومؤخرتها، يُفرّق بينهما صلعته أعلى رأسه، يُلوّح لي بذراعه عاليًا، فتركتُ اللعب وركضتُ نحوه مسرعًا والابتسامة تملأ وجهي، ركض يتخلله بعض القفزات كما يفعل الأطفال في العادة، حتى وصلتُ له ووقفتُ أنظر إلى وجهه عاليًا، ابتسم لي ثم قال:

- تعالى معايا يا عصوم.

فهززتُ رأسي على الفور بغير ترددٍ دون أن أسأل عن الوجهة:

- يلا بينا.

ثم مدّ إلى يده نحو الأسفل فأمسكتُ بسبابته بيدي الصغيرة وبدأنا السير. دائمًا ما كان يُحدّثني عن تاريخ الإسكندرية العظيم، وبالأخص عن المنطقة التي نسكن بها وهي محرم بك وتاريخها العتيق، وسكانها الذين كانوا من علية القوم الأغنياء والجاليات الأجنبية التي كانت تُقيم هنا بالحي الملئ بالفيلات العتيقة بديعة التصميم، والمشاهير والفنانين الكثر الذين نشأوا هنا، أمثال ليلى

مراد، وهند رستم، ونادية الجندي، وسيف وانلي، وأدهم وانلي وغيرهم..

وكان حبي وفخري بانتمائي لمحرم بك يزداد أكثر فأكثر، حتى أصبح مترصخًا بقلبي، ويجري في عروقي.

ظللنا نتحدث ويحكي لي حتى وصلنا محطة مصر، ركبنا مشروع (ميكروباص)، وانطلق بنا في الطريق حتى وصلنا إلى المكس، كانت أول مرة أذهب فيها إلى هناك، توقف المشروع، نزل جدي منه ثم أمسك بيدي وقفزتُ لأهبط منه على الأرض، كانت الشوارع ترابية رطبة وبها بعض برك الماء الصغيرة، مشينا قليلًا حتى سرنا في وسط بيوت عشوائية أو بالأحرى (عشش) هشة متهالكة، تُحيطها القمامة والأوساخ في كل مكان، كانت بعض البيوت مصنوعة من الخوص وأخرى طوبية متهالكة من القدم وماء البحر الذي يُحيط بالبيوت من كل اتجاه. اندهشتُ حينها من المكان، كيف يعيش أولئك الناس بتلك البيوت وسط الماء!

مشينا وسط تلك البيوت غير الصالحة للحياة تلك، نخطو في برك الماء والوحل، وأمام كل بيت أو عش، يجلس الذين يعيشون فيه، رجال، نساء، وأطفال، يجلسون عند البيوت وأمامهم أوفف بها

أسماك من أنواع مختلفة، يصطادونها كل يومٍ من البحر الذي يعيشون بجواره أو بالأحرى بداخله، ويجلسون بعدها ليبيعونها ويكسبون رزقهم..

وقفنا نشاهد الأسماك المعروضة، وجدي ينظر إلى البضاعة ويتفحصّها ويتكلم مع البائعين، وأنا أنظر وأتمعن في كل شيء حولي في ذهول الأطفال وشغفهم عندما يرون شيئًا لأول مرة.

انتهينا من الشراء، مددتُ يدي طالبًا من جدي أن أحمل من الأكياس التي في يديه، ثم أخذتُ كيسين، وحملتُ كل منهما في يدٍ، فسألني جدي إن كانا ثقيلين عليّ، فأجبته بكل شجاعة وقوة مصطنعة بالنفي، والحقيقة كانت عكس ذلك، ولكنني كنتُ أتظاهر أنهما خفيفان، لأبان كالكبار، وأنا أشعر بذراعيّ قد قاربا على السقوط من كتفيّ، وابتسامة الفخر على وجهي وأنا أنظر إليه بعينين تملأهما الثقة والشجاعة، فابتسم لي، ومشينا حتى نركب لنعود إلى المنزل.

كم أشتاق إليك يا جدي..

*****

الفصل الرابع

ليلة أمس وكعادتي، بعدما قد أُنهك جســدي من كثرة المشي ـ والتجوال كالمغترب في بلدتي، تائهًا في شوارع إسكندريتي المثقلة من حمل شكواي المريرة المتكررة، أجلس بركنٍ من أركانها لبعضٍ من الوقت ثم انتقل لركنٍ آخر وآخر، لم أترك بقعة من كورنيش البحر إلا وجلستُ عندها، والبحر الذي لم يسأم مني رغم كثرة همومي المترامية في أحشائه الشاسعة المضطربة، حتى أعود في آخر الليل إلى بقعتي المميزة التي قد أصــبحتُ أشــبه ببيتي الثاني، أو بالأصــح بيتي الأول، فأنا أجلس في ذلك المكان أكثر مما أمكث في بيتي، عند الشــاطيء بجوار كازينو الشــاطبي. أرجع في نهاية اليوم لأجلس هناك على الرمال، والمكان خالٍ من أي مخلوق، وعتمة الليلة تحل بالمكان كله ســوى ضــوء القمر الخافت الذي يُعطي طابعًا هادئًا، بعكس ما بقلبي ورأسي، تغلبه الزرقة الخافتة، لا يوجد سواي أنا والبحر، نتسامر ونشكو همومنا، فلا يمل أي منا من الآخر مهما طال الحكي وامتلأت قلوبنا بالحزن، ولكن حتى أكون صــادقًا، فالبحر أكثر إفضــالًا عليّ، يتحمّل وقوعي الدائم في أعماقه، فيحتضــنني حتى أرمي كل ما بداخلي من أثقالٍ

وهموم معبأة حتى اسودّت، ويسمعني أشكو لساعاتٍ وساعاتٍ دون مللٍ ولا شكوى منه على الإطلاق، حتى إنه يمد أمواجه إليّ فتُلامس أصابع قدميّ، فأشعر أنها تربتُ عليّ تعاطفًا معي على حالي.. أقضي الليل بطوله هناك، كل ليلة دون انقطاع، لربما أنقطع عن الذهاب إلى بيتي ولا أنقطع عن شاطيء الشاطبي.

ذهبتُ ليلة أمس إلى هناك كالعادة، أجرُّ قدميّ من الإرهاق المعتاد بعد التجوال المتواصل في أنحاء المدينة كالسائحين، ومثقلًا من كم الهموم القابعة في قلبي كأطنانٍ من الحديد الصلب، حاملًا صراعاتي المستمرة بداخلي في وقت ذروتها بالليل. تخطيتُ سور البحر، ومشيتُ بضع خطوات على الرمال، حاملًا على ظهري حقيبتي الثقيلة كهمومي، ممسكًا ذراعها بيدي، متجهًا نحو الصخور في نهاية الشاطيء الملامسة مياه البحر، كانت الساعة حينئذٍ تقرب الثانية بعد منتصف الليل، وعلى غير عادة إذ بي أرى شخصًا من بعيدٍ يجلس هناك عند الصخور، استغربتُ من وجود شخصٍ ما هناك في وقت كهذا، دائمًا ما أجلس هناك وعمري ما وجدتُ أي مخلوق موجود هناك في ذلك الوقت المتأخر من الليل غيري أنا، وأحزاني، والبحر صاحب المكان بالطبع.

اقتربتُ قليلًا لأرى بوضـوح من يجلس فالظلام كان حالكًا ونور القمر جعلني بالكاد أرى عن بُعد هيئة إنســان ضــبابية، عندما اقتربتُ سحرتُ من المشهد.. كانت فتاة تجلس على الصخر أمام البحر معطية لي ظهرها، وشـعرها البني الداكن يتطاير ويتراقص مع الهواء في انســجام مع الســيمفونيـة التي تعزفهـا الأمواج المتخبطة بالصــخور وهي تندفع ثم تنحسرـ عائدةً إلى الأعماق، جالســة دون حراك على عكس فسـتانها البرتقالي السـاحر الذي تتطـاير أطرافـه مع الهواء وكـأنهـا راقصـــة بـاليـه ترقص وتُلوّح بذراعها ممسكةً بشريطها الملوّن في الهواء، لترسم به لوحات فنية متحركـة ومتكررة في الهواء لتســحر بها عيون وقلوب كـل من يُشـاهدها، كنتُ أبعد عنها بعدة أمتار، سُحرتُ من ذلك المشـهد الخلاب، لم أشعر بنفسيـ إلا وأنا أنزع حقيبتي عن ظهري دون أن تنفصــل عيناي عن مشـاهدتها وهي جالســة، ثم أخرجتُ دفترًا رسميًا وقلمًا وجلستُ بهدوءٍ في مكاني على الرمل دون أن أُثير أي حركة تُنبهها بوجود شــخصٍ فتقلق وتضــطرب في مجلســها. أمسكتُ قلمي وبدأتُ أرسم ذلك المشهد الساحر وهي جالسة بظهرها وشعرها المتراقص في الهواء بتموّج ساحر كأمواج البحر التي تضــطرب خلفها من تأثيرها الســحري، خصــلاتها تتحرك

على شــكل أمواج كلوحة ليلة النجوم لفان جوخ، وهي كانت القمر الذي بزغ في قلب سـماءٍ ليلي ليُنير عتمة قلبي الحالكة، التي لم ترَ النور طوال تلك السنوات الماضية..

لم تمر سـوى بضـعة دقائق حتى انتهيتُ من رسـمها وأنا غارق في سـحرها العجيب، ما بالي غارق فيها هكذا منذ أول مرة رأيتها، دون حتى أن أعرفها.. أعرفها ماذا.. دون حتى أن أرى وجهها. كيف هذا!

أعدتُ الأغراض إلى الحقيبة مجددًا، اقتربتُ ببطء بخطوات هادئة نحوها، حاولتُ أن آتي من جانبها حتى تشـعر بي ولا تنفزع وأنا أقترب منها..

- احم احم.. أهلًا.

التفتت نحوي بسرعة قاطعًا غرقها في التأمل، وشـعرها يتطاير معها بسرعة ثم أخذ يترنح ببطءٍ وهدوءٍ سـاحر من أمام وجهها الدائري الأبيض الذي يزينه اللون الزهري على خديها البارزين وكأنهما وردتان من الجنة.. وعينيها.. آهٍ من عينيها. لؤلؤتين ثمينتين يلمع سطحهما الأزرق الرمادي الأملس من شدة النعومة والرقة، يشع منهما نور سحري خلاب، يخطف الأعين ويأسرها بداخلها، نور ما إن رأيته ونظرتَ في عينيها لا تسـتطيع مفارقتهما

بعد ذلك على الإطلاق، أُقسـم أنه نورٌ أقوى من نور القمر الذي يُضيء العالم بأكمله. كنتُ أحسب ذلك في القصص والأساطير وعالم الخيال فقط، ولكن اتضح لي أنها هي بذات نفسها الخيال، يوجد بداخل عينيها عالم الخيال الشاسع بأكمله، إن تراه لا تريد الخروج منه إلى الأبد، أأعين تلك أم أسطورة من أساطير ألف ليلة وليلة، أم أميرة هي من أميرات ديزني، أم جنية هي وليست بشرًا! أيُعقل حقًا ألا تكون من البشر! أيُعقل أن تكون جنية، أهي النداهة؟ نعم ممكن.. فبها كافة الشروط الموجودة عنها في الأساطير والحكايات الشعبية التي كان يقصها عليّ جدي وأنا طفل.. باهرة الحسن والجمال، ساحرة العيون شديدة الجمال والبريق وكأنها تشع نورًا، تظهر بعد منتصف الليل جالسة بجوار البحر. تمامًا كما رأيتها.. لا يُعقل ذلك. ماذا تقول يا عصام، ما تلك التخاريف السخيفة!

قطعتُ سفري في عالم الخيال السحري الذي غرقتُ به في عينيها وتأثرتُ بسحره العجيب، تنهدتْ قائلة بصوتٍ ملائكي ناعم:

- أهلًا.

يا إلهي.. ما هذا، ما هذا السـحر العجيب! لم أشرب الخمر يومًا، ولكنني كنتُ كالسـكارى الهائمين في عالمهم الخيالي غير الواقعي كما يصفون.

كل ما فيها يبعثُ سـحرًا أثقل تأثيرًا من السـحر الأسـود نفسـه، مجذوبٌ أنا بداخل عينيها، مسكينٌ أنا أمامها.

أسحرٌ أحلَّ بي، أم أنني سحرتُ بجمالها!

قلتُ وما زلتُ أُحدّق غارقًا في عينيها اللتان تهتُ فيهما:

- شكلك جميل جدًا.

لن أنسـى تلك الابتسـامة التي نُحتت بين خديها الكرويين الورديين لتظهر أسـنانها كاللآلئ البيضـاء الصـغيرة، المتراصـة بجمال فني خلاب وشـفتاها الحمراون تُفسـحان لهم مجال الرؤية كستائر المسرح.

أمالت رأسـها برقة وضـحكت ضـحكة طفولية صـغيرة في غاية الرقة وقالت:

- إنت الأجمل.

فزادتني غرقًا نحو الأعمق والأعمق.. ولكنني غريق لا يتمنى النجاة منها. فالموت فيها حياة، والهلاك فيها نجاة، وجحيمها جنة للعصاة.

سألتها وأنا أحاول استعادة وعيي:

- المنظر جميل مش كده؟!
- جميل جدًا فعلًا.
- لكن إيه اللي جابك هنا في وقت متأخر زي ده؟
- الحقيقة أنا لســه جاية النهارده من الســفر، بس اتخنقت من البيت فنزلت أشم شوية هوا.

نظرتُ إليها بفضولٍ وسألتها:

- سفر؟ كنتي فين؟
- كنت في باريس.

قلتُ لها متعجبًا:

- باريس!
- اه.
- بتحبي السفر وكده شكلك.
- اه بحبه لكن عمومًا بحكم شغلي.

همهمت مفكرًا ثم قلتُ:

- وبتشتغلي إيه؟
- أنا مترجمة. خريجة كلية ألســن إيطالي لكن معايا كذا لغة تانية زي الفرنساوي والأسباني، والانجليزي طبعًا.

ابتسمتُ بإعجابٍ ثم قلتُ:

- ما شاء الله.. جميل جدًا ده، ربنا يوفقك.

ثم أتبعتُ:

- على كده بقى طول الوقت بتسافري من بلد لبلد. مفيش استقرار؟
- اه طول الوقت بسافر لكن باجي إسكندرية هنا من فترة لفترة أقعد فيها مدة، اتولدت هنا وبحب إسكندرية جدًا، مش بقدر أبعد عنها كتير.

ثم أكملت:

- لكن موضوع السفر ده موجود من قبل الشغل، من زمان أوي وأنا صغيرة. بابا ربنا يرحمه كان قبطان فكنت دايمًا بسافر معاه أماكن كتيرة، أصل من ساعة ما ماما ربنا يرحمها ماتت وأنا صغيرة خالص وبقيت مع بابا طول الوقت. من هنا بقى جه موضوع السفر الكتير من وأنا صغيرة، حبيت الموضوع واتعلمت أكتر من لغة وحبيت الثقافات المختلفة دي كلها.. وأهو، الحياة كتبت عليا إني أكمّل على نفس النهج ده وشغلي يكون

لازم له سـفر كتير زي ما أنا بحب وزي ما اتعودت من صغري.

انتهت من الكلام ثم سـكتت قليلًا، أنظر نحو البحر مبتسـمًا ومفكرًا فيما قالته، ثم قلتُ:

- ياااه! تعرفي إننا شبه بعض أوي!

نظرتْ لي مبتسمة وسألتْ:

- في إيه؟

- أنا كمان ماما ماتت من زمان خالص وهي بتولدني. عشـت مع بابا فترة قبل ما هو كمان يموت ويحصـللها، فعشت مع جدي أغلب عمري، وكنا دايمًا سوا، عشنا سـوا أيام جميلة جدًا عمري ما بنسـاها.. علمني كتير.. كتير أوي.

تنهدتُ ثم أكملتُ:

- ربنا يرحمه بقى.

نظرتْ إليّ بحزنٍ وقالتْ:

- ربنا يرحم كل اللي بنحبهم.

- آمين.

حلّ الصمت لبضع ثوانٍ. سألتها:

- طيب انتي فاكرة مامتك؟

فأجابتني:

- بصراحة مش أوي. أصلي كنت صغيرة أوي لما ماتت.. مش فاكرة أوي غير لقطات بسيطة مش واضحة، لكن طبعًا معايا صور ليها هي وبابا بتفرج عليهم دايمًا.

ابتسمتُ قليلًا ثم قلتُ لها بنبرة حزينة:

- كان نفسي أشوف ماما أوي.
- صمتُ والحزن يملأني ثم أكملت:
- جدي قالّي إنها لما ماتت وهي بتولدني، هي كده ما ماتتش، هي كده روحها بقت جوايا مع روحي. يعني روحنا واحدة، ففرحت، وأوقات فعلًا بحس بكده، بحس إنها معايا، كان نفسي أتكلم معاها، كان نفسي أترمي في حضنها وأغمّض عيني وأهرب من الدنيا لما أي حاجة وحشة تحصل لي. كنت محتاجها أوي الفترة دي بجد.

قالت لي بنبرة حنونة:

- ما انت قولت، هي معاك دايمًا. أكيد معاك.

ابتســمت لها وأنا أدعك عيني التي كانت شــارفت على الذرف بدمعة دافئة، وردَّت لي الابتســامة بمثلها، ولكن لا.. ليســت بمثلها، ليســت بمثل أي ابتســامة أخرى أبدًا، أي ابتســامة تلك التي تبعث الراحة والطمأنينة في عروقي كلها بتلك الســهولة والسرعة، أي ابتسـامة تلك التي شـعرتُ أنها أزالت سـواد كل تلك الســنوات من الوحدة والكآبة. لا أدري من هي أو من أين جاءت، ولكن الشيء الوحيد الذي أدريه وأدركه تمامًا وبكامل يقيني هو أنني أُريدها، أُريد أن أكون معها طوال العمر، ولا أُريد أن أفقدها أبدًا مهما كلّف الأمر. أعرف أن هذا غير منطقي ولا معقول، ولكن هل هناك بحياتي شيء منطقي أساسًا؟! ماذا لدي لأخسره، ماذا لدي أصلًا؟!

هذا سـبب كافٍ لحاجتي إليها وبشـدة، أخيرًا وجدتُ شـيئًا ربما يسـتحق أن أعيش لأجله، شيء أسـتيقظ كل يوم من نومي راغبًا به، ساعيًا إليه. هي، وتلك الابتسامة الدافئة التي لم أشعر بها من قبل، ذلك الإحســاس بالراحة عندما أتحدث معها وأحكي عن كل شيء دون خجل أو قلق. هي، هي وفقط.

قلتُ لها:

- ألا صحيح، أنا معرفتش اسمك لحد دلوقتي؟

- ليل.. اسمي ليل.
- ليل! اسمك جميل شبهك.

تورّد وجهها وابتسمتْ، ثم قالت:

- تسميتي ليها قصة.
- احكيلي..
- أنا بابا مصري إسكندراني، وماما فرنسية.

فقاطعتها مندهشًا:

- فرنسية!

فقالت مبتسمة بصوتٍ ناعمٍ ورقيق:

- Oui.

فتعالتْ ضحكاتنا للغاية.

- ها وبعدين كملي.
- زي ما قولتلك بابا كان قبطان وكان بيسافر دايمًا فحكالي إن في مرة زمان وهو في فرنسا وبالتحديد في مدينة ليل، وكان قاعد في كافيه هناك بالليل، قابل ماما وعجبته جدًا فراح كلمها واتعرفوا على بعض وبقوا يتقابلوا كتير وبعدين في يوم بابا عرض عليها الجواز ووافقتْ، فلما كانت حامل وأنا اتولدت قرروا يسموني ليل، بالنسبة

لمدينة ليل اللي اتقابلوا فيها وماما منها، وبالنسـبة لبابا كمان بالعربي معنى الليل الجميل اللي قابلها وحبها فيه.

- يااااه.

وضحكنا..

قلتُ في نفسي: كانوا المفروض يسموكي قمر، عشان نورتي ليلي الضلمة ده.

قالت لي:

- وانت اسمك إيه؟

- عصام.

وصمت، وهي تنظر لي في ترقّب منتظرة أن أُكمل، فقلتُ لها:

- لا بس كده، مفيش قصة ولا حاجة.

فتعالتْ ضحكاتنا مجددًا.

منذ زمن وأنا لم أضحك من قلبي هكذا.. اهٍ يا ليل، أين كنت منذ وقتٍ بعيد؟ لكم احتجتُ أن تكوني معي طوال ذلك الوقت.

سألتني:

- وبتشتغل إيه بقى يا عم عصام؟

- أنا يا ســتي كنت بشــتغل شــيف باريســتا في كافيه في لوران، لكن سيبته ودلوقتي مكمّل كجرافيك ديزاينر.
- جرافيك ديزاينر! جميل، بتشتغل في شركة؟
- لا فري لانسر.
- حلو.. بس بعيدة دي ما بين باريســتا لجرافيك ديزاينر. جت ازاي؟
- أنا أصلًا برسم من وأنا صغير خالص، فأخدت الخطوة واتعلمت الجرافيك وقولت أشــتغل في الحاجة اللي بحبها، وأدينا ماشيين في الدنيا.
- بجد برافو. بترسم! أنا بحب الرسم جدًا.
- وأنا بحب.

كاد لســاني يفلت فتداركتُ الموقف متظاهرًا بأني أســعل، ثم أكملت متلعثمًا بإحراج:

- وأنا كمان بحب الرسم جدًا.

يا إلهي.. لا أســتطيع تمالك نفسي_ وأنا معها، كيف وقعتُ بهذه السرعة، أهذا هو الحب فعلًا؟! لا أدري، ولا يهم.. كل ما أريده هي.. هي وكفى، لا يهمني أي شيء في ذلك العالم القميء

سـواها، هي أميرتي ولا حاجة لي للقصـور والحاشـية، هي كنزي الثمين ولا حـاجـة لي للّؤلؤ والمرجـان، هي حيـاتي وإن طلبـت روحي صرتُ في لحظتها جثة هامدة.

أفنى؟ وما أسعدني بفنائي في حبها، فإن كان المصير محتّم، فعذابي في جحيم قلبها أولى.

حلّ الصـمت التام علينا، ظللتُ أتـأمل في عينيهـا مســحورًا بجمالها، مأسورًا بداخلها. لم أنبس بكلمة، ولم تفعل هي أيضًـا.. سـاد السـكوت ففهمتُ معنى أن الصـمت في حرم الجمال جمال، وسـمعتُ أمواج البحر تُلحّن موسـيقى هادئة سـاحرة تُداعب قلبي المسـكين، وكأنها نغمات قد عبرت البحر من إحدى مقاهي إيطاليا الممتلئة بالعشاق.

قامت ليل من مجلسها فجأة ثم قالت:

- لازم أمشي دلوقتي.

فوقفتُ لاحقًا بها وسألتها متلهوجًا عن رقم هاتفها، فردت عليّ:

- مش بمسك موبايل.

فقلتُ متعجبًا:

- ازاي؟!

- مش بحب يكون معايا تليفون.
- طب بتتواصلي مع الناس ازاي، والشغل؟
- والناس يهموني في إيه؟!

ثم أتبَعتْ:

- أنا بتفق معاهم في الشغل على المواعيد بالظبط، وبلتزم بيها، وبعرفهم إن وقت إجازتي مش هيبقى فيه تواصل معايا خالص لحد ما أرجع في المعاد المحدد.

نظرتُ إليها متعجبًا غير مقتنعٍ بما قالته ثم أومأتُ رأسي متظاهرًا بتفهمي.

قالت لي:

- يلا سلام.

واستدارتْ وأخذتْ تمشي بخطوات سريعة. قلتُ لها بصوتٍ عالٍ وهي تمشي مسرعة:

- هنتقابل تاني امتى؟

فنظرتْ إلى الخلف نحوي وصاحت قائلة وهي تبتعد:

- بكرا. في نفس المعاد.

*****

الفصل الخامس

منذ أن تركتها وأنا أُفكر بها لم تَغِب عن بالي لحظة.. أمشي ــ في الشــارع وأتذكر كل تفصــيلة حدثت في اليوم يتبعها ابتســامة بعرض وجهي من أوله لآخره، أسـيرُ في الشـارع ولكنني لسـتُ هنا، بل أنا ما زلتُ عند الشاطيء معها، أُعيد اليوم من أوله حتى آخر لحظة رأيتها فيها، وأُكرره بلا نهاية.

يا إلهي ما تلك السـعادة التي تغمرني! أُقســم أن تلك أول مرة أتذوق فيها طعم السـعادة الحقيقية بعدما كنتُ أســمع عنها من بعيـد فقط وأحيـانًـا أقول إنهـا مجرد خيـالات وأحلام وهميـة لا وجود لها، بل الواقع دائمًا مر ولقد خُلق الإنسان ليشقى فقط ولا وجود لذلك الفرح الشــديد إلا بالقصــص والأفلام، ولكن قد اتضح لي أن هذا حقيقي بالفعل.

بالنسـبة لشـخص قد نسـى معنى السـعادة والشـعور بها، فمن الطبيعي أن يرى الحياة بتلك الطريقة..

كيف يقتنع شــخص بحلاوة الشــوكلاتة وهو لم يتذوق ســوى الكاكاو المر!

كيف يفهم رجل مشرد طوال عمره معنى دفء البيت!

ولكنني الآن قد فهمت. الآن أفهم معنى السعادة والفرح، بل أستطيع أن أصف لك أدق تفاصيلها الصغيرة.. الآن أشعر بها تتملك كامل روحي، وتتحكم بكل صغيرة في جسدي. يرتجف قلبي كلما أُفكّر فيها، ويضخ مشاعر يتبعها ارتجاف بكامل جسدي وهي تتدفق في عروقي لتصل إلى كل مستشعرات الإحساس عندي. أشعر بقلبي يقفز بداخلي بشدة وكأنه يرقص ويريد الخروج من جسدي ليطير في السماء أو يذهب إليها ليحتضنها إلى الأبد.
أشعر أني وهمان لا أُدرك ما يحدث حولي، غارق في خيالي الذي لا أرى فيه سواها.

أهذا هو الحب إذًا؟! هذا الحب ولأول مرة أشعر به؟!
تقريبًا نعم، هو كذلك. أعتقد أنني قد وقعتُ به أو بالأحرى غرقتُ فيه، وفي الأغلب ألا منجى لي منه. ولكن لا يهم، فأنا لا أُريد النجاة منه أصلًا. ولِمَ أنجو منه وقد جعلني أسترد روحي مجددًا. وتلك أول مرة أشعر فيها أنني حقًا على قيد الحياة.

الآن أفهم إذًا معنى الحب. أو لا أفهمه، فهو إحســـاسٌ عجيبٌ غير مفهوم. مشـــاعر متضـــاربة تتخبط بداخلك، وإحســـاس بفوران في قلبك لا أدري ماهيته، ولكنه بلا شك إحساس جميل.

ذلك الحال أشـبه تمامًا بحال المجاذيب. من يراني في ذلك الوقت سيعتقد أنني مجذوبٌ بكل تأكيد.
نعم.. ماذا حقًا لو أولئك المجاذيب هم في الحقيقة عشاق؟!
يهيمون في عالمهم الخيالي الملئ بالحب والعشق والوَله، الذي يخلو من كل تلك الأشياء التي تُميتهم بالحياة في واقعهم السوداوي.
من يدري؟! مهما كنا نرى أننا أفضـل منهم حالًا ولكن لا شـك أنهم أســعد من ذلك البائس ذي الســواد تحت عينيه العائد آخر الليل لبيته كارهًا نفســه والناس والحياة كلها التي لم يرَ فيها راحة ولا سعادة قط. ولن يرى.

ظللتُ على ذلك الحال منذ أن تركتها. لا أُفكّر في شيء ســواها، حتى أنني لم أنمْ تلك الليلة، كنتُ مشــتاقًا لرؤيتها، أعد الثواني وكأنها عقود لا تمر. لكم أتمنى أن يمر الوقت حتى ألقاها مرة أخرى، أن أطوي الســاعات وأجعلها لحظات. أعتقد أن أول

شـخصٍ قد وردت على رأسـه فكرة اختراع آلة للسـفر عبر الزمن كان عاشقًا يتمنى لقاء محبوبته.

*****

ها قد حلّ اليوم التالي.
لم أنتظر حتى الليل كما اتخذنا كميعاد. أسرعتُ متلهفًا للذهاب إلى نفس الشــاطيء كمن عاش طوال حياته يتمنى شــيئًا وها قد رآه أمامه أخيرًا.

ذهبتُ إلى الشـاطيء وجلســتُ على الصـخرة التي رأيتُ ملاكي جالســة عليها ليلة أمس. جلســتُ أتأمل في أمواج البحر التي لا تفشـل في تسـكين قلبي إلا أنها قد فشـلت هذه المرة أثناء تفكيري بها، فلا يقدر شيء في ذلك العالم على تهدئة ارتجاف قلب عاشــق حينما تقبع معشوقته بخاطره.

*****

بدأت الشـمس في الغروب وأنا أنظر في سـاعتي وورائي، أملًا في أن أراها قادمة، ولكنها لم تأتِ.

*****

ها قد حلّ الليل وما زلتُ أنتظر، ولكنها لم تطل عليّ أيضًا.

لقد يأست.. يبدو أنها لن تأتي بالفعل.

لم يكن لي أن أفعل إلا أن ظللتُ جالسًا هناك بلا أمل، أُراقب البحر وأُفكر بها.

أراها تجلس أمامي على تلك الصخرة. تتكرر مشاهد ليلة أمس أمام عيني وأنا أراقب بتلهف كأنني أشاهد عرضًا أاول لفيلم بالسينما.

وأنتظر.

*****

أيُعقل أن تكون حقًا ملاكًا!

أكانت تلك التي رأيتها هي فعلًا النداهة!

إذن لِمَ لمْ تأخذني معها؟ لمَ سحرتني هكذا ثم تركتني أغرق وحيدًا في سحرها. إذا كنتُ سأغرق فأريدُ أن أغرق معها، أغرق في حبها، أعيش داخل فؤادها..

لم أشـعر بالحياة أبدًا إلا منذ أن رأيتها. لا أُريد أن تضـيع مني. لا أُريد أن أفقد الفرصـــة حتى ولو كانت ملاكًا أو جنية أو حتى خيالًا في رأسي.

أُريد أن أكون معها.

وإن كانت سمًا لتذوقته حتى موتي واستلذيتُ حلاوته.

*****

ها هو يوم آخر.

ذهبتُ اليوم أيضًـا إلى الشـاطيء وجلسـتُ آملًا قدومها. ظللتُ أنتظر ولكنها لم تأتِ أيضًا.

*****

ها هو يمر يوم ثم الآخر وأنا يائس من مجيئها، ولكن ماذا لي أن أفعل سوى الانتظار!

أتمنى من كل قلبي أن أراها مجددًا. سـأظل معلقًا بأضـعف خيط أملٍ في عودتها حتى ولو كان أدقّ من الشعرة.

إنه ليس لقاءً، بل إنه الأمل الوحيد في حياتي.

لا أحد سيفهم هذا، ولكنني رأيتُ حياتي فيها.

فمهما كانت ماهيتها، ومهما كان مكانها، وحتى وإن لم أجدها في ذلك العالم، فسأعدُ متاعي وأرتحل إليها مهما كان المآل.

*****

لقد مرتّ عشرة أيام منذ أن رأيتها.
وها أنا أتيت لأجلس عند صخرة ملاك الليل، آملًا أن يهبط عليها من السماء ويُضيء قلبي الذي أيقظه من الموت ثم رحل وتركه هائمًا تائهًا.

أجلس وحيدًا كعادتي أُراقب الأمواج وهي تتخبط في الصخور الجالس عليها بينما يتطاير رذاذها ملطخًا بنطالي بنقاطٍ مبللة صغيرة.
أنظر إلى القمر فوقي فأرى وجه ليل فيه، ثم أنظر إلى صخرتها فأراها عليها كيوم رأيتها، بينما ما زال الهواء يتلاعب بشعرها المموج، وما زلتُ غارقًا في خيالات عقلي التي ألقت بي فيها وحيدًا وأنا لا أُجيد العوم.

وبينما أنا تائهٌ في أوهامي إذ بي أشعر بأطراف أصابع تتهاوى على ظهري فالتفتُّ ورائي بلهفة شديدة جاحظًا عينيّ:

- ليل!

ولكن تحوَّلت تعابير وجهي وتراخت عندما وجدتُ أن الواقف ورائي هو رجل مسن يطلب المساعدة:

- أرجوك يا ابني ساعدني لله.

نظرتُ له ثم نفضتُ وجهي مع تنهيدة صغيرة محاولًا استعادة وعيي والعودة إلى الواقع، وكأنني قد استيقظتُ من النوم للتو.

وضعتُ يدي في جيبي وأخرجتُ ورقة نقدية وأعطيتها له.

((شكرًا يا ابني. الله يسعدك. الله ينولك مرادك))

قالها وهو يمشي مبتعدًا.

ابتسمتُ لما قاله، قائلًا بصوتٍ خافت: أتمنى يا حاج. أتمنى.

شعرتُ وكأن دعاءه موجه لما يشغل بالي تمامًا، وكأنه يعلم الأمر ويقصده بالتحديد، ولكنني شعرتُ بالراحة قليلًا بقلبي.

وبعد قليل. قمتُ من مجلسي- وحملتُ حقيبتي ثم عدتُ إلى المنزل غير مدرك بما أشعر بالضبط.

*****

توالت الأيام وما زال التفكير يطعنني في رأسي، لا يتعب ولا يستريح، ولا يريحني..

ما زلتُ أبحث عنها. ما زلتُ أنتظر في نفس المكان كل ليلة.

أجلس على الصخرة، أراقب البحر، وأنتظرها، وأغرق في التساؤلات والخيالات التي خلفتها في عقلي، والمشهد الذي لا يتغيّر مستمر في العرض أمام عيني، لا أشبع منه أبدًا، على أمل أن يلتحم وراءه المشهد التالي من الفيلم، الذي أخشى من أن يكون قد تلف شريطه.

أخرجتُ الرسمة التي رسمتها لها، وبقيتُ أتأمل فيها وأغرق بداخل تفاصيلها بمشاعر مضطربة وضربات قلبي غير مستقرة.

تلك الرسمة هي انعكاس ما بقلبي.

تلك الرسمة هي روحي.

إنها تخليدٌ لأهم لحظة في حياتي وأهم مشهد في روايتي بأكملها.
لكم أتمنى أن أراها مجددًا، وأرسمها مجددًا ومجددًا.
أتمنى أن أتزوجها، وأستيقظ في كل صباح وأراها نائمة إلى جواري، فأُمسك بقلمي وأجلس لأرسم ذلك الملاك النائم في هدوء.
لن أمل من هذا حتى لو ظللتُ أُكرّره إلى آخر عمري.
تلك هي كل أحلامي وأمنياتي. لا أريد سواها. لا أريد شيء. لا أريد نفسي.. فقط أريدها هي، فقط أريد أن تكون معي، أن أراها دائمًا. أن أُكمل حياتي معها، أو أبدأها بمعنى أصح.
أعيش حياتي معها حتى ولو لبضعة دقائق فقط ثم أفنى وأنتهي وتنتهي حياتي بأكملها. سأكون راضيًا، ستكون تلك الدقائق هي عمري كله وسيكون هذا أحلى عمر وأجمل حياة سعيدة دامت لدقائق معدودة، ولكنها في قلبي كانت ملايين السنين من الحب والفرح غير المتناهي والذي ستظل روحي تحمله وتتنقل به في ذلك العالم الشاسع بعدما أرحل. إلى أن ينتهي كل شيء، ويعم الظلام، فيكون آخر شيء قد انطفأ في هذا الكون هو حبي لليل.

*****

لم يتغير شيء.

لا زال قلبي يرفض الاستسلام لفكرة عدم عودتها أو أنها كانت مجرد وهمٍ في عقلي.

لا زلتُ تائهًا، أنتظر اكتمال ليلي الذي لا ينتهي أبدًا.
أتمنى بزوغ قمره ليُنير قلبي مجددًا.

*****

انتهيتُ من العمل على مشروعٍ عند الظهيرة، ثم ابتعتُ كوب قهوة فرنساوي سادة كعادتي وأخذتُ أتمشى قليلًا غارقًا في محيط أفكاري غير متناهي العمق.

لا أدري إن كنتُ قد رأيتها حقًا أم أن كل هذا كان مجرد خيالات!
كل ما رأيته هي مشاهد وهمية عرضها عقلي عليّ.
ولكن لماذا؟ هل أنا مريض؟
لا أدري حقًا. ولكن حتى وإن كانت مجرد أوهام غير حقيقية، فقد أعطت لحياتي طعمًا ومعنى بشكلٍ ما.
قد توغلت في أعماق روحي وجعلتني أستسيغ الحياة.

ولكنني أريدها أن تُكمل رسالتها.

أُريدها أن تعود وتكمل القصة معي.

أريدها أن تكمّلني.

لا يهم.

يبدو أنني مجرد بائس مختل لا معنى لحياته ولا جدوى من وجوده أصلًا.

ولكن أيًا يكن. فأنا أريدها وسأظل أنتظر على أمل أن تعود يومًا ما.

أتمنى.

*****

الفصل السادس

في المساء.

بعدما انتهيتُ من الرسم قليلًا. أخذتُ حقيبتي وخرجتُ لأذهب إلى شاطيء الشاطبي كالعادة.

تمشيتُ في طريقي إلى هناك وأنا أستمع إلى بعض من موسيقاي المفضلة.

وصلتُ إلى الشاطيء.

وقفتُ فجأة في ذهول، أفرك عينيَّ لأتأكد أنها ليست أوهام. يا إلهي! يبدو أن عقلي قد اختل، وأصبحتُ مجنونًا أُهلوس وأرى خيالات وأوهام.

إنني أراها.

لقد هبط الملاك ورسى على الصخرة ليُنير شاطيء الشاطبي كله.

الشاطبي ماذا! إنه يُنير الإسكندرية بأكملها، يُنير عالمي كله.

والأهم، يُنير قلبي مجددًا.

يا إلهي إنه نفس المشهد يتكرر بدقة بالغة، بكل تفاصيله.

أرى ليل جالسة هناك على الصخرة أمامي، تمامًا كما رأيتها من قبل. يتلاعب الهواء بشعرها كما رأيته يفعل من قبل، وها هي قد ظهرت مجددًا لتتلاعب بقلبي كما تفعل الرياح بريشة تهوى بين السماوات السبع.

جالسة تنظر إلى البحر كما رأيتها منذ قرابة العشرين يومًا.

يبدو أنها ملاك بالفعل.
ملاك يظهر كل فترة من الزمان، ليوصل رسالة معينة لشخص ما. لا أعلم حقًا ماهية تلك الرسالة، ولكن ربما قد تكون تهبط إلى الأرض لتبث الحياة في شخصٍ بائسٍ بلا روح وتُعطيه أملًا وسببًا للحياة.
ولكني لا أعلم إن كان أثّر فيّ هذا بالإيجاب أم السلب.

وقفتُ في مكاني لبضعة دقائق وأنا أسبح في تلك الأفكار والتساؤلات، بينما اعتقدت لوهلة أنني قد جُننت وما أراه ليس بواقعي. ولكني استجمعت قواي وأخذتُ بضعة خطوات إلى أن صرتُ بالقرب منها وهي ما زالت تُعطيني ظهرها لا تراني.

- ليل!

قلتها بصوتٍ خافت مرتجف، بينما ينتابني القليل من الخوف، محاولًا التأكد أن ما أراه ليس بخيال.
التفتت لي.
رأيتُ ذلك بتصوير في غاية البطء، وأنا أترقّب رؤية عينها قبل أن تُغرقني في أعماقها مجددًا كطائر مكسورة أجنحته سقط في المحيط دون حول له ولا قوة.

نعم. هاتان البلورتان ذاتا السحر الأدكن والأكثف من السحر الأسود.

رأيتُ الابتسامة تُرسم على وجهها الملائكي.

لا أستطيع القول أنني قد اشتقتُ لهذا المشهد، لأنه لم يغب عن مخيلتي منذ أن شاهدته للمرة الأولى ولو لثوانٍ حتى.

- كنتي فين؟! مش كنا متفقين نتقابل تاني يوم، ماجيتيش ليه؟

- أنا آسفة. اضطريت أسافر الصبح لندن بسبب حاجة متعلقة بالشغل.
- أنا استنيتك هنا. من يومها وأنا باجي هنا وأستناكي على أمل إنك تيجي.
- أنا بجد بجد آسفة. غصب عني والله. مقصدتش ده، الشغل جه فجأة واضطريت أسافر في استعجال، وعقلي ما كانش فيا.
- وأنا برضو عقلي ما كانش فيا. وقلبي ما كانش فيا. انتي سيبتيني جثة بعد ما وهبتيني الحياة وبعثتي فيا الروح.

قلتها وعيناي تغرغران بالدموع، بينما هي الأخرى قد جعلت الدموع عينيها تلمعان وهي تقول:

- للمرة المية أقسم بالله ما كانش قصدي أخليك تحِس بده. ما كانش قصدي أأذيك للدرجة دي. ما فكرتش إن ده ممكن يحصل، ما فكرتش إني هخليك تحس بكده.
- انتي ما تعرفيش حاجة، ماتعرفيش حاجة أبدًا.

قلتها وأنا أنظر إلى الأرض والدموع تُعافر للهبوط من عيني. سكتُ قليلًا ثم أتبعتُ:

- انتي خليتيني أحس إني عايش، إني موجود فعلًا. قبل ما أشوفك كنت شخص بائس وحيد، مش عايش عشان حاجة، ومافيش لحياتي طعم. لكن لما قابلتك حسيت. حسيت بمشاعر ماحستش بيها قبل كده، حسيت إني عايز أعيش، إني عايز أصحى بكره؛ عشان أشوفك بس. دي أول مرة أحس إني عايز أصحى. رغم إني مانمتش الليلة دي. سهرت الليل كله. حاجة واحدة بس هي اللي كانت في بالي. ليل.. انتي يا ليل.

فرّت دمعة من عيني بينما أقول ذلك الكلام، ثم لحقت بها دمعة من عين ليل لتجري على خدها الناعم الزهري.

حل الصمت لوهلة بعدما انتهيتُ من كلامي. كل منا ينظر إلى الأرض في ناحية مختلفة والدموع لم تجف بعد.

وبعد دقائق من الصمت قالت ليل دون أن تنظر إليّ:

- أرجوك سامحني. أنا فعلًا ماتخيلتش كده، ماكانش قصدي أبدًا إني أعمل فيك كده، وماكنتش أبدًا عايزة مشاعرك تتئذي بسببي.

ثم أتبعتْ:

- مسامحني؟

صمتُ قليلًا ثم رددتُ:

- مسامحك. لكن بشرط ماتعمليش كده تاني. ماتسيبينيش وتمشي تاني، أنا حسيت بالحياة لما شوفتك، وضاعت مني لما ضعتي.
- مش هعمل.
- توعديني؟
- أوعدك.

ظللتُ صامتًا قليلًا ولم أقل شيئًا. نغزتني ليل في كتفي بقوة وهي تقول ضاحكة:

- خلاص بقى، اتصافينا. كفايانا زعل.

قلتُ ضاحكًا وأنا أمسح الدموع من على وجهي:

- تمام، خلاص.

حل الصمت لثوانٍ حتى قطعته مدندنًا:

- ((أنا هويت. وانتهيت

وليه بقى لوم العزول

يحب إني اقول

يا ريت الحب ده عني يزول))

نظرت ليل لي مبتسمة لامعة عينيها، ثم شاركتني غناء باقي كلمات الأغنية:

- ((ما دمت أنا بهجره. بهجره ارتضيت

خلي بقى اللي يقول. اللي يقول يقول))

أخذنا نفسًا عميقًا وزفرناه بضحكة، أتبعته ليل:

- أيوه! بحب سيد درويش جدًا. كان بابا بيسمعهولي كتير زمان.
- ومين فينا مابيحبش سيد درويش! الأغنية دي دايمًا شغالة عندي في البيت.

فتحتُ حقيبتي وأخرجتُ منها دفتر الرسم ثم أردفتُ وأنا أُريها صفحة من الدفتر:

- بصي. رسمته قبل كده.

ابتسمت جاحظة عينيها:

- الله! إيه الجمال ده! دي شبهه أوي.

قلّبتُ الصفحات لأجلب الصفحة التي رسمتها فيها:

- بصي رسمت مين برضو.

قلتها وأنا أنظر في عينيها لأرى ردة فعلها.

نظرت إلى الرسمة بذهول واتسعت عيناها. خطفت نظرة لي ثم أعادت نظرها إلى الرسمة دون أن تنبس بكلمة. لأتبع هذا الصمت قائلًا وأنا أنظر في عينيها المركزة على الرسمة:

- ليل. أنا بحبك.

احتلّت تعابير دهشة وصدمة وجهها وهي ما زالت تنظر إلى الرسمة في يدها دون أن تردف لي برمش.

لأُكمل:

- عارف إنه غريب، عارف ده فعلًا لكن دي الحقيقة. ده اللي أنا حاسه، ده اللي فهمته من اللي حصل لي وقت غيابك. أنا إنسان ميت وانتي أحيتيني. انتي النور اللي مسح كل الضلمة اللي في حياتي الكحل دي، ده لو اعتبرناها حياة أصلًا!

من أول ما شُفتك وأنا شُفت الحياة فيكي، عرفت إنك حياتي، إني ما عشتش قبل كده من الأساس. أيقنت إنك الروح التي هتبعث الحياة فيا. لقيت أخيرًا سبب، سبب أعيش عشانه.

اللي عايزه فعلًا ومحتاجه. اللي يكملني.

ليل أنا شخص بائس محطم. بل أنا الحطام نفسه.

يمكن الناس بيشوفوني يقولوا: "ده الفنان مرهف الحس، اللي حياته كلها حب وسعادة". لكنهم مايعرفوش إني وحيد وحزين. ما شافوش جفوني المتفحمة بسبب الأرق. ما يعرفوش إني كل يوم مش ببقى عايز أصحى، وأوحش لحظة في يومي هي لما الدنيا تفتح عيني مطالباني إني أقوم وأواجه الواقع الفظيع ده لمدة ساعات تانية لحد ما أرجع تاني لعالم الأحلام واللي برضو مش بيخلى من الكوابيس والأحلام الوحشة.

عارفة لما تحسي إنك مش بتنتمي لأي مكان في الكون ده، مش عايزة تخرجي للعالم بره وفي نفس الوقت مش عايزة تقعدي في البيت برضو! مش عايزة تقابلي حد وفي نفس الوقت مش عايزة تكوني لوحدك! كأنك متعلقة في النص، مش طايلة سما ولا لامسة الأرض.

انتي المكان الوحيد اللي ارتحت له من أول ما شوفته وأيقنت إني محتاج أسكن فيه لحد ما ينتهي كل شيء، ومايعودش لينا وجود، ومايتبقاش منا إلا ذكرانا اللي هتتنقلها أرواحنا بين الأماكن اللي عشنا فيها واختلطت مشاعرنا ببعضها قبل ما تختلط بكل الحاجات اللي حوالينا لحد ما بقت جزء لا يتجزأ منها، ولحد ما يفنى الكون ويسود الظلام وما يتبقاش حد يفتكرنا.

انتي كل اللي عايزه في الحياة دي. بقى عندي حياة فعلًا من أول ما شوفتك. بقى عندي روح جوايا لمست جسمي الفاني ده، فتملّكته وامتدّت جواه واتصلت بكل نقطة فيه عشان تبعث فيها الحياة، فانتشلته من الفناء الحتمي والضياع في غياهب النسيان للخلود الأبدي، خلود الروح، خلود قلب حقيقي نبض في يوم من الأيام مشاعر دافية نقية منبعها أنقى شيء في الوجود، تجلّت عن كل دنس الدنيا واتبرأت منه، فبقت خالدة لأبد الآبدين، تحوم في العالم الكبير ده، بتتنقل تدور عن قلب صافي تاني يستحق يستضيفها فتعيش معاه لحظات تتكتب في ذكريات الدنيا بماية دهب ما تجفش أبدًا، وتشهد على أحداث بتتدفق وتجري بين القلوب بنقاء، بتحمل نفس ملامح الروح الأولى اللي سكنتها، وتفوح منها روايح ورود قلبها الدافي المعطر.

حتى ولو بَعَد المكان والزمان ملايين الأميال والسنين، بتتشابه القلوب وبتنبض ألحان الموسيقى اللي بتبعث الحياة وتضخها في عروق كل اللي سكنت فيهم الروح النقية دي، باعثة الرسالة اللي هتفضل شايلاها وتنقلها إلى الأبد. إن الروح دي عاشت في يوم من الأيام.

ده الشعور اللي أنا حاسه فعلًا يا ليل.

لو كل ده هو اللي بتسموه الحب، فآه ده حب. أنا بحبك.

انتهيتُ من الكلام.

أخذتُ نفسًا عميقًا للغاية ثم زفرته، وكأنني كنتُ أُصارع الغرق لوقتٍ طويل.

يا إلهي!!

لا أعلم كيف تجرّأتُ على البوح بذلك، ولكنني لم أُفكّر فيما قلت. كل ذلك خرج من قلبي إلى لساني مباشرةً دون أي إرادة مني على الإطلاق. أقسم أنني لم أنوِ على إخبارها بذلك.

ظلت ليل صامتة حتى بعدما انتهيتُ من كلامي. لم تنظر لي حتى، بل بقيتْ تنظر إلى الرسمة دون أن تُحرّك رمشًا، وتعابير وجهها، الذي قد احمر كالزهور، ساكنة..

*****

قطع قراءتهما رنين هاتف دكتور إبراهيم، أخرجه من جيبه ليجد المتصل هي زوجته، كانت قلقة عليه لخروجه من البيت في هذا الوقت المتأخر وعدم عودته حتى الآن، طمأنها ثم أنهى معها الاتصال.

قال لمحمود:

- أنا لازم أروح للمدام والعيال.
- هتسيبني كده؟ هنعمل إيه في الموضوع ده؟
- اصبر بس لحد الصبح وهجيلك ونشوف.

رحل دكتور إبراهيم وذهب إلى بيته، بينما جلس محمود ممسكًا بالدفتر ليكمل القراءة ليعرف ماذا حدث ويُشفي فضوله.

*****

الفصل السابع

ظلت ليل صامتة حتى بعدما انتهيتُ من كلامي. لم تنظر لي حتى، بل بقيت تنظر إلى الرسمة دون أن تُحرّك رمشًا، وتعابير وجهها، الذي قد احمرَّ كالزهور، ساكنة.

وفجأة تركت الرسمة من يديها على الصخرة دون أن تنبس بشفة، ثم قامت من مجلسها وركضت بعيدًا عن الشاطيء فأسرعتُ أقوم لألحق بها وأُنادي: "ليل! ليل".

ولكنها ظلت تركض حتى اجتازت سور الشاطيء وخرجت إلى الشارع تجري وسط الناس والسيارات، وأنا وراؤها ولكن لا أستطيع اللحاق بها فقد ابتعدت عني بمسافة ليست بقصيرة، حتى اجتازت الطريق قاطعة السيارات قبل أن أستطيع العبور أنا الآخر فوقفتُ أنظر إلى الناحية الأخرى من الشارع حتى لم أعد أراها. لقد اختفت.

اختفت بنفس السهولة التي أتت بها. اختفت ولم تنطق بكلمة.

ظللتُ واقفًا في مكاني جاحظًا عينيّ أنظر في الناحية التي كانت تتجه إليها دون أن أُحرّك رمشًا ولا أنطق بكلمة. والناس يمشون من حولي.

تسمّرت في مكاني. لا أفهم شيئًا، لا أفهم شيئًا على الإطلاق. ماذا حدث، ماذا يحدث لي؟!

لا استطيع الفهم.

(ليل!!!!!)

أخذتُ أصرخ وأُنادي عليها بعدما رحلت بدقائق دون أن أملك أدنى فكرة عمّا أفعله. أصرخ باسمها بأعلى صوتي، غير مبالٍ البتة بالناس الناظرين إليّ بتعجبٍ وقلق من حولي.

بعد دقائق عدتُ إلى الشاطيء بخطواتٍ مثقلة باليأس والحزن والإحباط.

جلستُ على الصخرة وأمسكتُ بالدفتر، أُحدّق بالرسمة التي بالكاد أرى هيئتها فيها بعيني التي اجتاحتها الدموع.

أنا.. أنا لا أدري، لا أدري حقًا..

ماذا بي!

ليل!

عودي أرجوكِ يا ليل!

أصابته الدهشة وهو يقرأ، غير مدركٍ لما حدث. لم يفهم ماذا جرى، حاله كحال عصام المسكين.

ماذا حدث!

ما هذا التصرف العجيب؟!

لماذا فعلت ليل ذلك؟!

لا أحد يعلم.

قلّب محمود الصفحات ولكنه وجد عدة صفحات فارغة تماما، وبعض الصفحات بها شخبطات عشوائية تكوّن رسومات غير واضحة كثيرًا.

بعضها تشبه هيئة فتاة، وأخرى لقلبٍ مليء بالجروح، ويوجد رسمة لشاطيء ويبدو أنه الشاطيء الذي ذكره في الدفتر وكان يُقابلها فيه.

أخذ يُقلّب الصفحات حتى وجد عبارات عشوائية قصيرة مدونة في صفحات متفرقة في الدفتر:

*****

ليل..

أين أنتِ؟

لم أرحل عن الشاطيء منذ رحيلك.

ما زلتُ أنتظرك. لمَ تأخرتِ هكذا؟!

*****

((ما زلتُ أنتظرك. أعلم أنكِ ستعودين. مهما طالت المدة))

*****

لم تركتِني وحدي؟

أنا غير قادر على الحياة بدونك..

أنتِ الحياة يا ليل. أنتِ كل حياتي.

أرجوكِ عودي. عودي سريعًا.

وأرجوكِ إذا قابلتِ روحي، أخبريها بأن تعود.

لكي تأخذني معها بعيدًا عن هذا الظلام.

*****

أتت ليل. عادت يوم أمس ولكنها رحلت مجددًا.

جلسنا سويًا تحت ضوء القمر في ليلة يملأ هواءها الرومانسية.

طلبتُ منها الغناء ولكنها رفضت في البداية بحجة أن صوتها سيء ولكنني أقنعتها أخيرًا.

غنّت لي أغنية فرنسية. يا إلهي كم كانت رائعة بصوتها الملائكي الناعم هذا!
صوتها وهي تغني قد حُفر في قلبي قبل ذهني.

بينما أنا قد غنيتُ لها لـ (أم كلثوم):

"وحنيني لكِ يكوي أضلعي. والثواني جمرات في دمي"

آهٍ. كم تصف تلك الكلمات ما بداخلي يا ليل..

*****

لقد أحرقتُ قلبي محاولًا إنارة روحي المظلمة
فلا أُنيرت روحي. ولا عاد لي قلب.

*****

تأتي ليل لتزورني عند الشاطيء من الحين إلى الآخر. ما زلتُ أجلس هناك منذ أن اعترفتُ لها بحبي.
يا إلهي. لقد مر وقت طويل للغاية. في الحقيقة لا أعلم كم المدة التي مضت.
لا أدري.

شهور! سنين! عقود!

لا يهم.

المهم أنها تأتي وأراها.

*****

- صفحات مليئة بالرسومات والشخبطات غير المفهومة أيضًا.

*****

((لماذا أحترق من الداخل في كل ثانية

وكأن ما أتنفسه نارًا تلتهم روحي لا الهواء))

*****

- رسومات كثيرة لفتاة بمواضع مختلفة ومكتوب أسفلها (ليل)-

*****

- كلما يقلّب الصفحات يجد شخبطات ورسومات لا معنى لها ومشوهة غير واضحة.

ثم آخر شيء قد كُتب في ذلك الدفتر:

*****

((كان بإمكانكِ قتلي برصاصة واحدة.

لم اخترتِ جعلي أموت في كل ثانية تمر؟!))

*****

انتهى الدفتر..

ظل محمود في حالة صمت وذهول. انتابه الحزن والأسى لما حدث لعصام.

صدمة وصمت. عقله غير قادر على استيعاب الأمر.

ومن يقدر على استيعاب مثل ذلك الأمر؟!

جلس يُحدّق في الدفتر بيده في غاية الحزن والتأثر والحيرة.

حتى قطع غرقه في حيرة عقله صوت جرس الباب.

تعجّب من إتيان أحدٍ في ذلك الوقت المتأخر من الليل، وقد كان الوقت قرابة الفجر.

قال في عقله ربما يكون إبراهيم قد نسي شيئًا يخصه وقد عاد ليأخذه.

قام من مجلسه واتجه نحو الباب ليفتحه.

كانت تقف امرأة ثلاثينية متفجرة الأنوثة، ذات شعرٍ مموجٍ داكن يتخلله خصل شقراء، ممتلئة الخدين الذين يقع على إحداهما حسنة سوداء تُزيّنها، ترتدي معطفًا جملي اللون يُظهر جزءًا من صدرها،

تمضغ لبانة، وشفتاها شديدتا الحمرة، تنظر له بعينها العسلي بؤبؤها، ذات الرموش الكثيفة.

قالت له بصوت أنثوي خافت مُداعب:

- كده مابتردش عليا كل ده! ده أنا اتصلت بيك مية مرة.

تعجّب من إتيانها. نظر إليها جاحظًا عينيه وقال:

- إيه اللي جابك دلوقتي يا إيمان؟!
- كده برضو؟! أنا تقوللي إيه اللي جابك برضك؟!
- الدنيا متكعبلة يا إيمان، إنتي مش عارفة حاجة.
- مش عارفة حاجة عشان إنت ما بتردش عليا.

مدّت يدها لتزيحه لتدخل من الباب قائلة:

- يوه! هتوقفني نتكلم على الباب كده!

أوقفها بيده وقال:

- استني بس. مش هينفع، فيه حد جوا.

ردّت متعجبة:

- حد! حد مين؟
- لا ده موضوع طويل.

صمت قليلًا ثم قال:

- طيب ادخلي يا إيمان ادخلي.

دخلت إيمان من الباب وأتبعها محمود وأغلق الباب برفقٍ، ثم قال لها:

- براحة بس ووطي صوتك عشان هو نايم جوا.

وأشار نحو باب الغرفة المغلق التي نائم بها عصام.

قالت له:

- مين ده بقى! هو إيه الحكاية؟
- الموضوع كبير ويطول شرحه. انتي إيه اللي جابك دلوقتي؟!
- يوه! شوف بيقولها تاني ازاي!

ثم أتبعت وهي تقترب منه:

- هكون جاية ليه يعني! جاية أتدلع، وأدلعك، ونتبسط..

وهي تضع إصبعها على خده وتُداعبه.

- مش وقته الكلام ده يا إيمان.

- ليه مش وقته! ده وقته، وجدًا كمان.

ثم اقتربت منه أكثر ووجها يقترب من وجهه، قال لها:

- قولتلك مش وقته يا إيمان.

لتقطع كلامه بقبلة مباغتة، أغرقته فجأة ونقلته من عالمه إلى عالم آخر، أغمض عينيه في سكون واستسلم لها.

قاما ودخلا غرفة نومه ليكملا علاقتهما المحرمة التي لها حوالي ثلاث سنوات.

وبعد قرابة الربع ساعة، وبينما هما بالداخل، سمع محمود صوت حركة بالخارج، وصوت باب الشقة يُفتح، فارتدى ملابسه وهمَّ مسرعًا نحو الخارج ليرى ماذا حدث، فوجد باب الغرفة التي كان عصام نائمًا بها مفتوح، وكذلك باب الشقة، دخل الغرفة وقلبه يرتجف من الخوف ليجدها فارغة.

أمسك بهاتفه مسرعًا ليتصل بدكتور إبراهيم، بينما خرجت إيمان من الغرفة بعدما قد ارتدت ملابسها.

- ألو يا إبراهيم! الحق! عصام خرج ومش لاقيه في الشقة.

صاح فيه إبراهيم بغضب:

- يعني إيه خرج ومش لاقيه! ازاي يعني تسيبه يخرج كده؟
- معرفش أنا كنت في الأوضة جوا وفجأة سمعت صوت باب الشقة، طلعت مالقيتهوش.. هنعمل إيه؟!

صمت إبراهيم قليلًا يُفكر ثم أجابه:

- روح دلوقتي عند كازينو الشاطبي بسرعة وأنا هاجيلك على هناك. أكيد هو راح هناك، نفس المكان اللي لاقيته فيه، واللي كان بيحكي في المذكرات إنه قاعد هناك دايمًا من ساعة ما قابلها.

اتسعت عينا محمود قائلًا:

- تصدق صح، عندك حق. يَلا أنا رايح دلوقتي، تعالى بسرعة.

أنهى المكالمة، ثم طلب من إيمان أن ترحل فورًا.

خرج محمود وإبراهيم كل منهما من بيته متجهين إلى الشاطبي، في قمة الخوف والقلق على عصام.

*****

الفصل الثامن

سار عصام متخللًا شوارع محرم بك، والسماء ما زالت تُمطر بغزارة شديدة والجو في غاية البرودة، مرتجفًا، يُهمهم ويُنادي: ليل! ليل! أنا جايلك يا ليل.

حتى وصل إلى الشاطبي. اتجه نحو الكازينو، وصل عند شاطئه ليرى ليل تقف فوق الصخرة التي رآها عليها أول مرة، تقف ناظرة إليه بابتسامة ساحرة، عندما رآها ذهل، واجتاحته فرحة عارمة. أشارت إليه بإصبعها ليأتي إليها. فهرول عصام مسرعًا نحوها، بينما هي استدارت وبدأت تأخذ خطوات نحو البحر حتى نزلت من على الصخرة ولامست قدميها المياه المنخفضة، ثم أخذت تمشي ببطء نحو الداخل، والمياه تعلو وتعلو.

ما إن وصل محمود إلى الشاطبي ووقف بجانب سيارته حتى لحقه إبراهيم بعدة دقائق.

كان الفجر قد حل، ولكن ما زالت الدنيا مظلمة قليلًا بينما بدأت السماء تُشقشق استعدادًا لشروق الشمس.

نزل دكتور إبراهيم من سيارته سريعًا مقتربًا نحو محمود ثم قال وهو يشير بيده:

- تعالى كده. تلاقيه عند الشط ده اللي جنب الكازينو على طول زي ما كان كاتب.

هرولا مسرعين نحو هناك. اجتازا السور وركضا على الرمال بينما لمحا عصام بعيدًا فوق الصخور في نهاية الشاطيء متجهًا ناحية المياه، فحاولا الركض أسرع ليلحقا به.

ينظر إلى ليل وهي تدخل البحر، فعبر الصخرة ثم نزل إلى الماء وهو يمشي تائهًا عقله كالمجاذيب، يُناديها:

- ليل.. ليل.. استني أنا جي؟

وأخذ يدخل نحو الأعمق ليلحق بها، والماء قد وصل حتى صدرها، ثم استدارت نحو عصام ومدت ذراعيها إليه وقالت:

- تعالى.. تعالى يا عصام.

فقال لها وهو مبتسم وفي قمة فرحه بينما يقترب منها، والماء يصبح عميقًا أكثر فأكثر:

- أنا جايلك يا ليل.

حتى وصل إليها وأمسك بيديها، ثم ضحك بفرح شديد وقال:

- أخيرًا! أخيرًا جيتي يا ليل!

وصل محمود وإبراهيم إلى الصخرة ليريا عصام وحده داخل الماء الذي قد وصل عند رقبته، يقف وكأنه يتكلم مع أحد لا يريانه.

وقفا ينظران إليه في دهشة وذهول والخوف قد تملّك قلبيهما، وفجأة، وجدا عصام يغوص داخل الماء ففزعا بشدة، جرى محمود بسرعة ثم قفز إلى الماء ثم لحقه إبراهيم سريعًا.

وعصام يرى ليل وهي تسحبه من يديه داخل الماء، وهما يسبحان بداخله، سارحًا في جمالها الخلاب، سعيدًا أنه أخيرًا صار معها، تسحبه وتشده نحو الأعمق، وهو يغرق داخل البحر بينما يغرق في أحلامه داخل عقله الغائب، يرى مزيجًا بين ذكرياته القديمة وذكرياته معها وخيالاته التي هي بطلتها الوحيدة، وعلى وجهه ابتسامة رضا وراحة، ولذة وصول إلى مبتغاه.

يراها بمكانٍ واسع مليء بالزرع والأشجار كالبستان، وكأنه الجنة، بل يراها هي الجنة. تسحبه من يده وتعده بأنهما سيبقيان سويًا إلى الأبد.

دقات قلبه تتسارع وتتسارع، بينما مشاعره تضطرب وتتصارع.
شعور بتلك اللذة يتملك جسده. تلك اللذة العارمة.
لذة المسجون عند خروجه من زنزانته، لذة المشتاق عند ملاقاته لعشيقه، لذة الصابر عند دخوله الجنة.

يرى ليل تسحبه من يده بينما تطير لأعلى نحو السماء، يبتسم ويملأه الفرح، بينما يصعد معها إلى السماء، وتصعد روحه خارجة من جسده.

تمسك أياد مرتجفة بجسده، بينما يحاول إبراهيم ومحمود السباحة خروجًا من الماء وهما ممسكان به، حتى وصلوا إلى الشاطيء.
تفحصاه بسرعة ليجدا أن ليس به نبض، هرعا يضغطان على صدره محاولان القيام بالإسعافات الأولية، وهما ينهجان بينما يحاولان القيام بأي شيء لإنقاذه والدموع تتدفق كالشلال من أعينهما مثلما تُمطر السماء من فوقهما. ولكن دون نتيجة.
فقدا الأمل. وأيقنا أن عصام قد فارق الحياة، وأن الأوان قد فات، ملأهما اليأس والإحباط، ونزل على قلوبهم الحزن كالصاعقة، بينما استلقيا على الأرض بجانبه وانهارا في البكاء.

جلس محمود وإبراهيم عند قبر عصام، يتذكران كل الذكريات التي مرت بهم سويًا، والدموع لا تجف من على خديهما.

رحل عصام، ولكن السؤال هو، هل رحل للتو؟ أم أنه قد رحل منذ وقتٍ بعيد، منذ سنوات، منذ أن غابت عنه ليل وغابت معها روحه؟ هل كانت تلك نهاية مأساوية، أم الشيء المأساوي حقًا كان حياته؟

ولِمَ فعلت ليل هكذا؟

لِمَ رحلتْ؟

لِمَ لمْ تفِ بوعدها معه؟

أو السؤال هو،

هل كانت ليل موجودة من الأساس؟

أم أنها مجرد وهمٍ قد صنعه عقله ليشفي به وحدته الموحشة.

*****

(تمّت بحمد الله)



ج.م.ع

الإسكندرية

Email: mazagelkotob@gmail.com

Mobile: 01024541339